

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

Ministère de l'Enseignement Supérieur et
de la Recherche Scientifique

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

Centre Universitaire
Colonel Akli Mohand Oulhadj
Bouira



المركز الجامعي
العقيد أكلبي محمد أولحاج
البويرة

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

قضية اللفظ والمعنى عند الجاحظ

مذكرة لاستكمال متطلبات شهادة ليسانس

تحت إشراف:
العوفي بوعلام

من إعداد الطلبة:
❖ درياس مريم
❖ زينات مسعودة

السنة الجامعية 2011/2010

إهداء

طريق الألفه يبدأ بخطوة ،وها نحن اليوم نخطو الخطوة الأخيرة في مشوارنا الدراسي
بعملنا المتواضع هذا، والذي لولا إرادة الخالق وسمر الوالدين وتعبهما ما كنا لنصل.
أهدي هذا العمل إلى من نمى في أحشائها تسعاً ورضعت بـدل حليبها حناناً ونموتني
أحضانها دفناً، وشملي دماؤها رماية.

إليك أمي العبيبة

إلى الذي يخفي رقة قلبه وراء صرامة شخصيته غير أن سناؤه وحرصه على تعليمي أبلغ
دليل على فشله في إخفاء عطفه.

إلى شموخ عظمتك أبي الغالي

أداكما المولى عز وجل نورا و سندا لي.

إلى جدتي والدة أبي رحمها الله و طيب ثراها ووالدة أمي شفاها الله وأطال عمرها في
طاعته.

إلى من قدر له أن ترى عينه ما كتب في جبينه "عمي العزازي" مع تمنياتي له بأن
تكتب في ميزان حسناته وبالشفاء العاجل.

إلى أختي الوحيدة أمينة وإلى إخوتي رشيد ونبيل وإلى المرع الذي أبكى عيني قبل
أن يفرح فؤادي بنبا نجاحي في شهادة البكالوريا نور الدين أدامك الله نورا حل نور
إلى كل أعمامي وزوجاتهم وخاصة ابن عمي عبد الحميد.

إلى أخوالي وزوجاتهم، وخالتي وبناتها وعمتي وبناتها.

إلى كل رفيقات دربي طليحة، نادية، فاطمة، أمينة، ريمة و داد، وخاصة إلى زميلتي
التي كانت سندا وعمونا لي في هذا العمل درياس مريم.

((مسعودة))

إهداء

قال تعالى: "ولا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً"

إلى من حملتني في بطنها تسعة أشهرٍ وهنا على ومن، وأرضعتني حولين كاملين من خالص حنانها

والتي كانت نعم الرفيقة، إليك يا نسمة الهواء النقي

ويا نفسي وروح عمري ... أمي الغالية

إليك يا قرّة عيني ويا مصبة قلبي وسند ظمري

إليك يا من كنت وما زلت شمعة تنير دربي

يا من اشتريتك لي أول قلم لأرسم به دربي

أبي العبيد

إلى مصابيح البيت، أخواتي : سمية، نسيم، نعيمة، سهام وراوية

إخوتي: سمير، رامي

وأهدي هذا الإنجاز البسيط وبالتحديد إلى رفيقات عمري وطفولتي

إيناس، زينب وبالخصوص إلى قاسي يوغرطة

وابنة خالتي " صافية "

كما لا أنسى صديقة دربي ورفيقة مشواري "مسعودة زينات"

التي كانت نعم الصديقة والمعينة

إلى كل من كانت للجامعة محطة لقائنا ومسرحاً لذكرياتنا

وداد، ريمة

وإلى كل من ذكرهم قلبهم ونسيم قلبي ...

((مريم))

شكر وتقدير

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على من أرسله
رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً سيّد الأولين والآخريين، نبينا ومعلّمنا وقائدنا محمد
على الله عليه وسلّم

وربّك :

لا يسعنا إلا أن نتقدم بوافر وجزيل الشكر، وعظيم وخالص الامتياز والتقدير وبعد

الله عزّ وجلّ إلى الأستاذ الفاضل " العوفي بوعلام "

نتقدم لك أستاذنا الفاضل بجزيل الشكر والتقدير، فقد كنت لنا أباً لا أستاذاً
بسعة ورحبة صدرك وطيبة قلبك، يجهز القلم ويعجز اللسان عن عظمة شخصيتك

فمرة أخرى شكراً جزيلاً ومع تمنياتنا لك بالشفاء ودوام الصحة والعافية

ياذن المولى عزّ وجلّ .

اهتمت الدراسات اللغوية منذ القدم بفكرة التواصل الإنساني، إذا كان أساس قيام تلك الأداة التي تضاربت حولها الأراء في خضمّ البحث عن نشأتها، ألا وهي اللغة، وباللغة استطاع الإنسان أن يعبر عن أغراضه ومقاصده، لإيصال ما يريد نقله إلى غيره، ومن القضايا التي شغلت الفكر اللغوي قديما، وما زالت محلّ اهتمام الدارسين حديثا قضية (اللفظ والمعنى) حيث أن دراسة اللغة في ذاتها تعد دراسة للعلاقة القائمة بينهما، وقد دفعنا إلى هذا البحث شدة تعلقنا بالتراث العربي الإسلامي، والأهمية القصوى لهذه المسألة (اللفظ والمعنى) وارتباطها بكثير من العلوم ومجالات المعرفة الإنسانية، فدراستها لم تبق حبيسة الدراسات العربية فحسب بل تعدت رحاب التراث العربي لتشمل باقي أقطار العالم، حيث ترعرعت في أحضان مختلف العلوم عامة، وفي البلاغة واللسانيات على وجه الخصوص إذ تعد مسألة أساسية مشتركة بين العلوم والدراسات العربية المتصلة بالكلمة واللغة، ولعل أهم مشكل صادفته الدراسات العربية هو أي الجانبين يعود له الفضل في جودة الكلام اللفظ أم المعنى؟ وقد اشتقت عن هذه الإشكالية عدّة تساؤلات منها: - ما هو مفهوم اللفظ والمعنى؟ أين يكمن أثر القدامى في بلورة هذه القضية؟ وما موقف الجاحظ من هذه القضية؟ كل هذه التساؤلات تقودنا إلى البحث والتمحيص في ثنايا تراثنا الأصيل آخذين الحبال بين ما قدمه أسلافنا وما تبناه المحدثون منهم، وللإجابة عن هذه التساؤلات عدنا إلى رسم الخطوط العريضة عند الجاحظ لهذا البحث المسمى بـ (اللفظ والمعنى)، فكان أن طرقتنا باب موضوعنا من خلال مدخل وفصلين، فتناولنا في المدخل لمحة عامة عن نشأة هذه القضية، كما اشرنا إلى بعض القدامى الذين انتبهوا إلى هذه القضية ومنهم عبد القاهر الجرجاني.

وتناولنا فيه أيضا نظرة الجاحظ إلى هذه القضية باعتباره أول من أثارها، وخصصنا الفصل الأول لشخصية الجاحظ وذلك من حيث المولد والنشأة والشكل والمذهب كما أننا أشرنا إلى أهم ما ميّز عصر هذه الشخصية، كما عرفنا أيضا على ثقافته الواسعة ومدى تأثره بالثقافات الأخرى مثل اليونانية والفارسية... أما الفصل الثاني فجاء عنوانه "اللفظ والمعنى عند الجاحظ" تطرقنا فيه إلى مسائل من صميم بحثنا وهي: قسم تاريخي حول ظهور اللفظ والمعنى، تناولنا فيه النقاط التالية: أول من أثار هذه القضية، القدامى الذين التفتوا إلى هذه الظاهرة، نقاط الالتقاء والمطابقة بينهم، أما الجزء الثاني فركزنا فيه على:

عمل الجاحظ الاعترالي وموقفه من اللفظ والمعنى، وكان رجوعنا بالأساس إلى أهم المؤلفات التي تعتبر مصادر بحثنا خاصة كتابي: تاريخ النقد الأدبي عند العرب لإحسان عباس، وكتاب منهج النقد الأدبي عند العرب لصاحبه آدم أثويني، ونرجو أن يكون بحثنا هذا قد وفق في دراسة هذه القضية، فلن بلغ الغاية فذلك الهدف المنشود، وإن لم يبلغ فيكفي أن تمت فيه المحاولة والاجتهاد لإظهاره على الصورة التي هو عليها، ويبقى الكمال لله عزّ وجلّ، غير أنه في سبيل ذلك لم نجد الطريق مفروشاً بالورود فقد اعترضت سبيلنا بعض الصعوبات إلا أننا وبفضل الجهود المبذولة وبتوفيق الله وفضله تجاوزناها فالحمد والشكر له أولاً وأخيراً.

تعد اللغة أقدم ما عرفه الإنسان، وستظل السبب الرئيسي في السمو بمكانة الأمم أو الحط من قيمتها، انطلاقاً من مقدرة تلك الأمة على توظيفها والتواصل من خلالها، فاللغة تنتم بالحياة لأنها قادرة على التعبير بصفة دقيقة عما يحيط بالإنسان، فهي تملك إمكانيات في تحمل الدلالات، ولأنها واكبت تطور الحياة الإنسانية، فكان لها وضع الأسماء بالمسميات يتحقق بها التفاهم والتواصل، وهي اللغة نفسها التي عبّر بها عن الشعور الذي يعد دليل البلاغة والفصاحة، كما عبّر بها عن الرسالة السماوية فهي لغة القرآن، وهي فضلا عن ذلك لغة العلوم المختلفة من فقه وكيمياء وطب....الخ، فالعربية إذن لغة اتصلت بميادين الفكر المختلفة لأنها تتكيف مع مستجدات الأحداث بقدرتها على تغيير دلالات ألفاظها.⁽¹⁾

وبالتتابع الزمني تطل الأبحاث اللغوية العربية كمرحلة لاحقة و متممة لسابقتها، ولعل أهم عامل في ظهورها هو القرآن الكريم وما أحدثه من ثورة فكرية خلخلت البنية العقلية للإنسان العربي، فظهرت علوم عدة تخدم في معظمها النص القرآني وتحافظ عليه من اللحن والتحريف ومن أهمها: علم النحو، فقه اللغة والمعاجم، ومن أشهر من خاض في هذا المجال سيبويه، ابن جني، ابن فارس.... وقد استقصوا معظم جوانب اللغة من نحو وصرف، ترادف واشتقاق، إعلال وإبدال، بالإضافة إلى الجانب الدلالي الذي نال قسطا وافرا من البحث، فبحثوا عن العلاقة بين اللفظ والمعنى التي هي موضوع بحثنا وكذلك مظاهر التطور الدلالي وعرفوا المشترك اللفظي، الترادف، توليد الألفاظ، وكذا الدخيل والأعجمي ومختلف الظواهر التي اشتهرت في التراث العربي.⁽²⁾

إن المنتبِع للدرس اللغوي العربي، يجد أن معظم اللغويين قد خاضوا في مشكلة أصل اللغة واختلفت آراؤهم بين قائل بالتوفيق، وآخر بالاصطلاح، وموفق بينهما، ورغم أن الجاحظ لم يترك نصا صريحا يوضح فيه رأيه، فهو من أصحاب الرأي الثالث، فكونه متكلماً ومعتزلاً ليس له أن يخرج عن إطار ما قالت به المعتزلة التي كانت تقفل بالاصطلاح، لكنه لم يكن مرتاحاً لهذا الرأي مع أنه في كثير من الأحيان يتحدث عن الألفاظ المحدثه، أو المصطلح عليها والتي دعت الحاجة إلى ابتكارها، كما في قوله: "فالمتكلمون مثلا تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني،

1- جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1998، ص 41.

2- سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1، 2001، ص 76.

اشتقوا من كلام العرب تلك الأسماء، واصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا بذلك سلفا لكل خلف، وقدوة لكل تابع.⁽¹⁾

ولقد استطاع الدارسون القدامى أن يضعوا لقضية «اللفظ والمعنى» قواعدها كما تصوروها، وعيا منهم لما لها من أهمية، وكل دراساتهم كانت تتم عن مدى سعيهم الدائم لفهم النص القرآني خاصة،⁽²⁾ فظاهرة اللفظ والمعنى امتدت إلى علوم شتى، إذ نجدها في النحو والصرف وفي الوضع والمعاجم عند البلاغيين والأدباء والنقاد وفي التفسير، وفي الفلسفة ولدى المتمكنين «أصحاب الفرق الكلامية»، لذا ارتأينا أن ندرس هذه الظاهرة التي لها أثرها في الدلالة والغاية المقصودة من الكلام،⁽³⁾ فنزول القرآن لم يكن حدثا عابرا بل كان هزة عنيفة زعزت أركان الفكر العربي ونظرية الوجود، فهذا الكلام المعجز في كل شيء، لم يسبق للعرب أن صادفته مما كفّ عنهم ألسنتهم، بحيث لا تتناول إليه طاقتهم، مهما بلغت من القوة والتمكن، وباتساع رقعة الدولة الإسلامية ودخول الأعاجم في الدين الجديد وازدياد اختلاط العرب بغيرهم بدأ الاهتمام ببلاغة الكلام العربي يضعف ويتلاشى لدى الأجيال المتعاقبة فكان لزاما عليها أن تعتمد العقل وتوظف قدراتها المعرفية والفكرية للولوج في سر الإعجاز القرآني⁽⁴⁾.

وفعلا تمّ ذلك انطلاقا من البحث عن موضوع الإعجاز فيه وأين يكمن، هل في ألفاظه أم في معانيه؟ كما دعت الحاجة إلى فهم النصوص الشعرية، وخاصة الجاهلية منها واستبيان فحواها إلى الغوص في مسألة اللفظ والمعنى، فقد اعتمد عليها النقاد كذلك في التمييز بين جيد الشعر ورتديئه.

لقد بدأت التأليفات التي تناولت هذه القضية تظهر ابتداء من القرن الثالث للهجرة منها كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي (231 هـ) وخاصة "البيان والتبيين" للجاحظ سنة (255 هـ) وغيرها.

1- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط 4، ج1، 1985، ص 139، 140.

2- جلال الدين السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، ص 42.

3- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط 1، لبنان، 1971، ص 187.

4- إحسان عباس، نفس المرجع، ص 188.

ولقضية اللفظ والمعنى علاقة وطيدة بمشكلة الوضع والمواضعة، فيما يخص نشأة اللغة، وما يسعنا هنا سوى الإشارة إلى هذه القضية، فعندما يحاول المرء التفكير في قضية نشأة اللغة، فإنه يتساءل هل الألفاظ موضوعة إزاء الصورة الذهنية، أم الماهيات الخارجية، وفي هذه المسألة تضاربت الآراء وانقسمت:

- فهناك فريق يرى أن الألفاظ وضعت إزاء الصورة الذهنية ومن بينهم رأي فخر الدين الرازي ومثاله على ذلك أنه "من رأى شبحاً من بعيد وظنه حجراً" أطلق عليه لفظ "حجر" فإذا دنا منه وظنه شجراً أطلق عليه لفظ "شجر" فإذا دنا منه وظنه فرساً أطلق عليه اسم "الفرس" فإذا تحقق أنه إنسان أطلق عليه اسم "إنسان"،⁽¹⁾ وهذا ما يؤكد أن إطلاق اللفظ على شيء ما يكون إزاء الصورة الذهنية دون الماهية الخارجية، أي حسب ما هو متصور في ذهن الإنسان، وهذا الرأي يوافق إلى حد كبير نظرية الفكرة القائلة أن "معنى التعبير هو الفكرة أو المفهوم المرتبط بذلك التعبير في ذهن أي شخص يعرف هذا التعبير".⁽²⁾

فكانت تكتب تعبيراً مثلاً وتقرأه، يتبادر إليك ما هو موجود في ذهنك فأنت تفهمه كما هو متصور في ذهنك.

- في حين يذهب فريق آخر إلى أن الماهية الخارجية هي الدافع إلى وضع الألفاظ، فالإنسان يضع الألفاظ على المسميات التي يراها في الخرج، وإن يراها فهو يعتقد بوجودها كذلك، وهو رأي أبو إسحاق الشيرازي ورأيه هذا يوافق كثيراً نظرية الإشارة القائلة أن معنى التعبير هو ما يشير إليه هذا التعبير ويمثله.⁽³⁾

ويرى فريق ثالث، وهو فريق يحاول التوفيق بين الرأي الأول والثاني أن اللفظ موضوع إزاء المعنى من حيث هو مع قطع المظهر عن كونه ذهنياً أو خارجياً،⁽⁴⁾ لأن الهدف ليس إدراك معنى اللفظ إن كان موضوعاً إزاء الماهية الخارجية أو الصورة الذهنية، لكن المهم أن اللفظ حامل لمعنى بغض النظر عن الزاوية التي تنظر بها إليها.

1- جلال الدين السيوطي، المرجع السابق، ص 42.

2- جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، 1، 1987، ص 32.

3- المرجع نفسه، ص 32.

4- جلال الدين السيوطي، المظهر في علوم اللغة وأنواعها، ص 43.

في حين يرى الجرجاني أن: "اللغة تجري مجرى العلامات أو السمات ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه وخلافه"⁽¹⁾.

فعبد القاهر يرى أن الألفاظ هي الوحدات الأساسية التي تشكل اللغة لأنها قابلة لتحقيق التواصل والتداول، فاللفظ عنده هو علامة أو سمة لأن الألفاظ أوضاع اللغة كما يقال بدليل قوله: "واعلم أن هاهنا أصلا ترى الناس في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر وهي أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها"، فهي أدلة عن المعاني أي "الألفاظ دالة عليها"، فالمعنى والمدلول هو الذي يجعل الألفاظ علامات أو سمات أو أدلة، فاللفظ على مستوى اللغة عند الجرجاني يحمل المعنى الحديث للسمة، أو الدليل اللغوي بوجهيه، اللفظ (الدال) والمعنى (المدلول).⁽²⁾

ومن الذين اهتموا بقضية اللفظ والمعنى، ابن رشيق القيرواني وابن الأثير، فقد كانت دراساتهم قريبة من النظريات الغربية الحديثة والمتعلقة أساسا بالشكل والمضمون حيث يرى ابن رشيق أن معظم الناس واللغويين على وجه الخصوص ينظرون إلى الشكل على أنه أعلى من المعنى ثمنا وأعظم قيمة، عُزَّ مطلباً، فإن المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي الجاهل فيها والحاذق، لكن العمل الأهم جودة اللفظ وحسن السبك، وصحة التأليف⁽³⁾، فمثلا إذا أردنا أن نصف لوحة زيتية لفنان ما، أو منظرا طبيعيا، فبإمكان معظم الناس تقديم وصف خاص، ولكن لكل طريقته في ذلك ولكل اختياره الخاص للألفاظ التي يستعملها في ذلك الوصف، وبالتالي يستحيل علينا أن يكون الوصف واحدا وبنفس السبك والتركيب، إلا أن اهتمام ابن رشيق باللفظ لا يعني أنه أهمل شأن المعنى، فقد رأى تكامل بعضها البعض، أو بالأحرى تداخلهما وتلاحمهما، وفي هذا الصدد يقول: "اللفظ جسم، روحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته..."⁽⁴⁾.

وتصادفنا وجهة نظر أخرى وهي قريبة من رؤية ابن رشيق، وهي وجهة نظر ابن الأثير، فيما يخص مسألة اللفظ والمعنى، حيث يرى أن فصاحة القول تكمن في اللفظة التي تعطي

1- عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د، ت)، ص 137.

2- نفس المرجع، ص 138.

3- سمير أبو حمدان، البلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت، لبنان، ط 1، 1991، ص 91.

4- ابن رشيق القيرواني، العمد، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، ج3، ط 1، 1996، ص 96.

للمعنى شكلا لا ثقا وأليفا، فإن كانت لدينا ألفاظ أو مفردات تحمل نفس المعنى، فإننا نختار اللفظة الأليفة التي تستحسنها الأذن، وفي هذا الصدد يقول ابن الأثير: "لو أن الفصاحة أمر يرجع إلى المعنى، لكانت هذه الألفاظ في الدلالة عليه (على المعنى) سواء، ليس منها حسن ومنها قبيح، ولما لم يكن كذلك، علمنا أنها تخص اللفظ دون المعنى"⁽¹⁾.

كما يرى أن المعاني الشريفة أقل عسرا وصعوبة من تحصل الألفاظ الشريفة، وهو الأمر الذي نوه به الجاحظ عندما اعتبر: أن المعاني المتوارية في الصدور والمختلجة في النفوس، لا يمكن أن تحتل مرتبة رفيعة ما لم تضع صوغا بيانيا ينعكس تأثيرا على نفس الملتقى وعقله. فالمطلوب قبل كل شيء وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل وبقدر ما يكون ذلك متحصلا يكون إظهار المعنى والدلالة على المعنى الحقيقي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه⁽²⁾.

لقد عنى الجاحظ بدراسة مسائل قضية اللفظ والمعنى، وأتى على أكثرها دراسة وتحليلا، ولهذا عدّ زعيم مدرسة "أنصار اللفظ" ولعلّ عبارة الجاحظ التي نجدها تتردد في كل الكتب التي تناولت القضية تعد فعلا العبارة المفتاح التي توضح موقفه من هذه الثنائية حيث يقول: "المعاني المطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجود السبك، وإنما الشعر صياغة، وضرب من النسج وجنس من التصوير"⁽³⁾.

وإذا أمعنا النظر في عبارة الجاحظ، فإننا نفهم أنه يعيب على من خصوا المعاني بالفضل والمزية، فهي مطروحة في الطريق، وجارية على ألسنة الناس، وإنما الشأن في الألفاظ التي يجب أن تكون متخيرة وسهلة المخرج كما أن المعاني وإن وجدت، فإنه ليس بإمكان أي كان أن يدخلها في مجال الأدب سوى الأدباء، بما يراعون من جمال التعبير ولذلك لقيت عبارة الجاحظ تغيرات كثيرة، كالتغيير الذي أورده إحسان عباس حيث يرى أن: الجاحظ أدرك بأن الإعجاز القرآني مرتبط بالنظم، ومنه لم يكن هناك بد من تقديم المعنى على اللفظ... ولعلّ ما يثبت ذلك قول الجاحظ: "ولكل ضرب من الحديث، ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعنى نوع من

1- ابن الرشيقي القيرواني، المرجع نفسه، ص 97

2- الجاحظ، المرجع السابق، ص 220.

3- الجاحظ، الحيوان، ت.ح: عبد السلام هارون، ج3، ط3، بيروت، لبنان، 1969، ص 131.

الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف"، حيث يرى الجاحظ ضرورة اختيار اللفظ المناسب للمعنى المناسب، فلكل مقام مقال كما يقال، وأنّ وضع الأسماء كان بحسب المعنى الذي تؤديه.⁽¹⁾

* تطابق اللفظ والمعنى عند الجاحظ

إنّ اللفظ والمعنى في مستواه الفني غير مفصولين عن التصور اللغوي عموماً، وعن أبحاث الإبداع الأدبي خصوصاً، بالإضافة إلى رأي الجاحظ في أقسام البيان عامة وملاحظاته المتعلقة بالظاهرة اللغوية على وجه الخصوص، تمدّ تصوراته هذه إلى ترسيخ نظريته في الكلام، إذ يعتبر الجاحظ أوّل مفكر عربي يمكننا أن نقف في تراثنا العربي الأصيل على نظرياته المتكاملة، والتي تقدر لنا أنّ المظهر العلمي لوجود اللغة المجرد ينجز بالضرورة في سياق خاص، يجب أن تراعي فيه إلى جانب الناحية اللغوية، جملة من العوامل الأخرى كالسامع أو المرسل إليه باعتباره أول مستقبل للرسالة أو الكلام، والمقام وظروف القول، وكل ما يحيط بهذه العناصر أو ما يربط بينها، واختلاف هذه العناصر المكونة يؤدي إلى تنوع الكلام والخطاب، وبالتالي هناك استعمال مادي للظاهرة اللغوية وهو الاستعمال الهادف إلى تحقيق التواصل في المجتمع، والاستعمال الفني للظاهرة بأبعاد الصياغة ذاتها، وهو ما يسمى بالخطاب الأدبي والمحقق للبيان الفصيح وفي إطار هذا فالخطاب يكتسب لفظه ومعناه. ولقد عمل الجاحظ على تقديم اللفظ تارة والمعنى تارة أخرى، وهذا لا يوحي إلى أي تناقض إذا حملنا المعنى على أن المقصود منه محتوى الصياغة، فعلى الرغم من أنّ هناك من يرى أنّ البلاغة في الألفاظ، ولكن عند من يروا هذا الرأي أنّ (الجاحظ ومن تبعه)، (لم يعتنوا بالألفاظ أصواتاً مجردة من معانيها وإنما عنوا بها العبارة عن المعنى)⁽²⁾.

لذلك قد يبدو لنا غريباً أمر الدكتور "إحسان عباس" الذي يرى في دلالة المعنى لدى الجاحظ المستخلص من مقولته: "المعاني مطروحة في الطريق... وهو يقارن ذلك برأي ابن قتيبة أنه يرى أنّ: "من بين الفروق بينهما اختلافهما في النظر إلى مشكلة اللفظ والمعنى، فبينما انحاز الجاحظ إلى جانب اللفظ ذهب ابن قتيبة مذهب التسوية"⁽³⁾، ولعلّ الدكتور إحسان عباس

1- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 98.

2- شكري عياد، كتاب أرسطو طليس، ترجمة: منى ابن يونس القنائي، دار الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1967.

3- إحسان عباس، المرجع السابق، ص 107.

يحمل اللفظ في قوله السابق معنى الشكل، فيكون انحياز الجاحظ إلى اللفظ انحيازاً إلى الصياغة المحتوية على معناها، في حين يتجسد موقف ابن قتيبة في تبنيه فكرة الصياغة والمعنى في مستواه الذي يدعو إليه الشعر من حكمة وأخلاق.

وبالتالي يمكننا القول إذا حملنا المعنى على المادة الأولية القابلة للتشكيل في صياغات متعددة لا تنفي التناقض عن الجاحظ، إذ أن التركيب المبرهن على الإعجاز لا يعني أصواتاً متفرقة، وإنما هو الانتظام الموحد لوحدات دالة في السياق الخاص بها، ويكون المعنى الناتج خلاصة لهذا النظام، وبالتالي فالنظم عبارة عن كتلة مكونة من طرفين هما اللفظ والمعنى، وبهذا الفهم الخاص ننفي التناقض الذي نسب للجاحظ، حيث يكون من بين دلالات المعنى عنده تلك الأصوات القابلة لأن تتشكل في صياغات مختلفة.

إذ يمكننا القول أن هذه الاتهامات الموجهة للجاحظ هي مجرد سوء فهم بعض هؤلاء المفكرين والنقاد وخطهم للمصطلحات التي استعملها الجاحظ والتي حملوها مضامين يتجاذبها العصر الحديث، فلا هي عبرت عن مقاصد الجاحظ تعبيراً صحيحاً، ولا أعطت بديلاً لها، والدليل على ذلك أن هؤلاء في إطار هذه الاتهامات وقعوا في تناقض، وخير مثال على ذلك: "الدكتور شوقي ضيف الذي أكد ميل الجاحظ إلى الألفاظ وأنه كان شغوفاً بحسنها وبهائها، فضلاً عن خطهم للمصطلحات حيث كانوا يستعملون تارة اللفظ والمعنى ومقابل ذلك الشكل، والمضمون وراح كل واحد منهم يضيف مفاهيمه الخاصة لها"⁽¹⁾.

فعلى مسألة اللفظ والمعنى عمل الجاحظ على البحث في هذه القضية من زوايا متعددة، فهو يرى مثلاً أن أحسن الكلام ما كان معناه في ظاهر لفظه، وذلك لا يتم برأيه إلا من خلال المزوجة بين المعنى الشريف، واللفظ البديع، ليقول الجاحظ: "وأحسن الكلام ما كان قليلاً يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه..."، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال، مصوتاً عن التكلف، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة، ويرى أن المعاني في متناول جميع الناس، وإن الكلام لا يكتفي بالمعنى

1- إحسان عباس، نفس المرجع، ص 108.

البليغ وحده حتى يكتسب صفة البلاغة، وإِنَّمَا هو محتاج إلى اللَّفْظ الفصيح والأسلوب القوي المحكم بكل عناصره حتى يكون له تأثيره القوي في أَسْمَاعِ النَّاسِ⁽¹⁾.

* اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى، الدال والمدلول والعلاقة بينهما

إِنَّ الْمُتَمَعِّنَ الْمَدَقَّقَ فِيمَا خَلْفَهُ الْجَاحِظُ أَتْنَاءَ حَدِيثِهِ عَنِ اللُّغَةِ، يَجِدُ أَنَّهُ يُوْضَفُ ثَلَاثَةَ مِصْطَلِحَاتٍ تَتَدَاخَلُ فِيمَا بَيْنَهَا وَهِيَ الْاسْمُ، اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى، فَمَا الْعِلَاقَةُ بَيْنَهُمَا؟ يَقُولُ: وَاعْلَمْ أَنَّ حُكْمَ الْأَلْفَاظِ خِلَافَ حُكْمِ الْمَعَانِي، لِأَنَّ الْمَعَانِي مَبْسُوطَةٌ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ، وَمَمْتَدَّةٌ إِلَى غَيْرِ نِهَائِيَّةٍ، وَأَسْمَاءُ الْمَعَانِي مَقْصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ⁽²⁾ وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ يَعْطِي لِلْمَعَانِي مَفْهُومَ اللَّانْهَائِيَّةِ، أَمَّا الْأَسْمَاءُ فَهِيَ مُحَدَّدَةٌ، وَكَأَنَّهَا تَعْجِزُ عَنِ الْإِطَاحَةِ بِكُلِّ الْمَعَانِي، وَالْأَسْمَاءُ هُنَا هِيَ بِمَنْزِلَةِ الْخَطِّ وَالصُّورِ وَالرُّسُومِ، وَيَتَضَحُّ ذَلِكَ فِي قَوْلِ الْجَاحِظِ: "إِنَّمَا سُمِّيَ شَوَالٌ شَوَالًا، لِأَنَّ النَّوْقَ شَالَتْ بِأَذْنَابِهَا فِيهِ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ قَدْ يَتَّفِقُ أَنْ يَكُونَ شَوَالٌ فِي وَقْتٍ لَا تَشْوُلُ النَّاقَةُ بِذَنْبِهَا فِيهِ، فَلِمَ بَقِيَ هَذَا الْاسْمُ عَلَيْهِ، وَقَدْ يَنْتَقِلُ مَا لَهُ لَزْمٌ عَنْهُ؟ قِيلَ إِنَّمَا جَعَلَ هَذَا الْاسْمَ لَهُ سَمَةً، حَيْثُ اتَّفَقَ أَنْ شَالَتْ النَّوْقُ بِأَذْنَابِهَا فَبَقِيَ عَلَيْهِ كَالسَّمَةِ"⁽³⁾، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ لِلْعِلَاقَةِ الْعَضْوِيَّةِ بَيْنَ الْمَعْنَى وَالْاسْمِ، لِتَصْبِيحِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ فِيمَا بَعْدَ عِلَاقَةِ غَيْرِ مَنْطِقِيَّةٍ أَوْ غَيْرِ عَضْوِيَّةٍ. وَقَدْ اتَّفَقَ أَنْ وَضَّفَ الْجَاحِظُ الْمَعَانِي، الْأَسْمَاءَ، وَالْأَلْفَاظَ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ حِينَ قَالَ: "إِنَّمَا جَازَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي صِنَاعَةِ الْكَلَامِ، حِينَ عَجَزَتْ الْأَسْمَاءُ عَنِ اتِّسَاعِ الْمَعَانِي"⁽⁴⁾. وَهُنَا يَبْرُزُ الْفَرْقُ جَلِيًّا فَالْمَعَانِي هِيَ الْأَفْكَارُ وَالْأَسْمَاءُ هِيَ الصُّورُ الصَّوْتِيَّةُ أَوْ اللَّفْظِيَّةُ لَهَا، وَلَمَّا عَجَزَتْ الْأَسْمَاءُ الْمُتَعَارَفُ عَلَيْهَا فِي اللُّغَةِ عَنِ مَجَارَاةِ الْمَعَانِي، كَانَ لَا بُدَّ مِنْ ظُهُورِ الْإِصْطِلَاحِ، وَالشَّاهِدُ هُنَا أَنَّ أَبَا عَثْمَانَ فِيمَا بَعْدَ يُوْضَفُ الْأَلْفَاظَ بِمَعْنَى الْمَعَانِي أَوْ الْعَكْسِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ: "الْمَعَانِي مَطْرُوحَةٌ فِي الطَّرِيقِ ..."، وَفِي ذَلِكَ إِثْرَةٌ إِلَى أَنَّ الظَّاهِرَةَ لِلْغُويَّةِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ قَائِمَةٌ عَلَى الْمُتَصَوِّرَاتِ أَيِ "الْمَعَانِي" وَ"الْأَصْوَاتِ" "الْأَلْفَاظِ"⁽⁵⁾.

1- قصي الحسين، النقد الأدبي عند العرب واليونان، معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2003، ص308.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.

3- الجاحظ، نفسه، ص169.

4- الجاحظ، نفسه، ص141.

5- الجاحظ، الحيوان، ج3، ص131.

إنّ الخلاف القائم حالياً بين النقاد حول معرفة الموقف الحقيقي للجاحظ من اللفظ والمعنى راجع أساساً إلى الخلط الملحوظ أحياناً في تعبيره هو نفسه عن هذه المفاهيم، وهذا الخلط في التعبير عن هذه المفاهيم لم يتعرض لها النقاد على ما يبدو، والحال أنّه يشكل تناقضاً صريحاً ولا يمكن التسليم به للجاحظ، ولهذا وجب علينا أن نفهم هذه القضية داخل نظامه الكلامي، ليس هذا فحسب، بل لا بدّ من مسابرة الجاحظ في مغامراته التي سلك فيها اللفظ والمعنى، لأنّ هذه وإن كانت لا تتوفر فيها كل المتطلبات المنهجية العلمية، إلاّ أنّها أكثر اتصالاً به وبالتالي أكثر تعقيداً من موقفه الحقيقي⁽¹⁾.

وبناءً على هذا التعقيب وما قدّمه الجاحظ لخدمة الدرس اللغوي، يمكن القول بأنّه وبجدارة قد كرّس رؤية علمية شاملة، وهذه الرؤية ما هي إلاّ ثمرة من ثمار الدرس اللغوي خاصة والأدبي على وجه العموم، ذلك أنّ اللّغة العربية نظام مرّن قابل للدراسة والتحليل ومصدر للإبداع والإنتاج⁽²⁾.

1- محمد الصغير بنّاني، النظريات اللسانية والأدبية والبلاغية عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 139.

2- ينظر: محمد الصغير بنّاني، ص 140.

مولده ونشأته

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن قزارة، الكناني الليثي، من بني كنانة بن خزيمة، والد النضر أبي قريش، وبنو كنانة بطن من مضر، ويقال لهم كنانة طلحة، والليثي نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مناه ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة، وإلى هذه القبيلة ينتسب أبو عثمان الجاحظ فهو عربي كناني⁽¹⁾، ولكن رغم ذلك فهذا الاضطراب في مولد الجاحظ ومماته، لحق هذا الاضطراب نسبة أيضا فعله بعضهم كنانيا أصيلا، وجعله بعضهم الآخر كنانيا بالولاء، وقد يكون التعليل الثاني أقرب إلى الصحة من التعليل الأول.

أطلق عليه لقب (الجاحظ) بسبب نتوء حدقته مما جعله نميما، وربما لقب بـ(الحدقي) فهو أقل ذيوعا من لقبه الأول⁽²⁾، واختلف في السنة التي ولد فيها حيث يقال أنه عام 159 هـ 775م ومات عام 255 هـ 768م أي أنه عاش 96 سنة وقد شكا هو نفسه كبر سنّه في قوله عندما ذكر مرضه: "وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها". وقد نقل ياقوت في معجمه أنّ أبا عثمان قال: "أنا أسن من أبي نواس سنة ولدت في أوّل سنة 130 هـ وولد في آخرها"⁽³⁾، كانت البصرة مكان ولادته، نشأ من أبوين فقيرين إذ توفي والده وهو لا يزال صغيرا، وكان يبيع الخبز والسمك في سيحان أحد أنهر البصرة وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الآداب فأكسب على الدرس، وجد في التحصيل وأخذ من جهابذة اللّغة والرواية كالأصمعي، وأبي عبيدة.⁽⁴⁾

زُعم أن الجاحظ كان مولى لأبي القلمس الكناني النساء أحد حكام العرب وأول من نشأ الشهور على العرب في الجاهلية فأحل لهم ما أحل وحرم محرم، قيل: "كان قزارة جد الجاحظ أسود اللون وكان حمالا لعمرو بن قلع الكناني"، ومن هنا تطرق الشك إلى عربية أبي عثمان فتساءل بعضهم، هل كان من أسرة عربية سامية؟ أم من العناصر الإفريقية التي عرفت الرق؟⁵، وسواد فرارة في رأي يموت ليس دليلا على أن

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط، ص 53.

2- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة متعددة، ص 08.

3- ابن منظور، لسان العرب، مادة جظ، د.ت، ص 192.

4- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط29، 1975م، ص 267.

5- جورج غريب، المرجع السابق، ص 80.

الجاحظ انحدر من أصول غير عربية فقد يكون العربي أسود اللون، وما جاء في هذه الرواية أن جد الجاحظ كان حمالا لعربي وهو عمرو بن قلع ليس دليلا قاطعا على إثبات ما يزعمون على أن الأرجح أن الرواية منحولة، إذ ترد عن مصدر موثوق به ولم يرو أحد أن احد آباء الجاحظ كان رقيقا أو وقع في أسر.

لقد كان للجاحظ من شخصيته القوية وروح الاعتزال السارية فيما سمو به عن هذه الصغائر إلى شيء آخر، وهو ذلك الولاء الذي يدين به، فهو ينحدر من أصل عربي صريح خالص، من بيت كريم المحتد، عظيم المعتزلة في الجاهلية والإسلام.⁽¹⁾

كان الجاحظ يختلف إلى مساجد ومنازل العلماء، وإلى سوق "المريد" الشهيرة حيث تلقى أفانين الخطابة عن بلغاء العرب وفصاحتهم، كما كان يستأجر دكاكين الوراقين، أثناء الليل لتمضية وقته في المطالعة والبحث العميق.

حدث أبو هفان، قال: "لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتاب، والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع كتاب قط وإلا استوفى قراءته، كائنا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للنظر، والفتح بن خاقان فإنه كان يحظر لمجالسة المتوكل ..."⁽²⁾

انتقل الجاحظ إلى بغداد عاصمة الخلافة، واتصل بالأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبي زيد الأنصاري، والنظام الأخفش، فاستقامت له علوم اللغة والكلام والنحو والحكمة، فأتقن أساليب الأدب شعرا ونثرا، كتابة وخطابة على السواء، ولا شك أن إطلاعه على هذه العلوم جميعا جعل ذهنه "دائرة المعارف" كاملة وساعده على إقامة مذهب فكري، فلسفي عُرف بـ "الجاحظية" وكان له أتباعه ومريدوه، ولاسيما أن الجاحظ وثيق الصلة بـ "المعتزلة" التي ذاعت بين الفكر في ذلك الحين،⁽³⁾ ومن مريد البصرة وحلقات المسجدين ودروس العلماء وأحاديث البلغاء وفكهايات الظرفاء ومجالس الحكماء، أخذ الجاحظ كثيرا من ضروب الثقافة، وما أكثر ما كان أبو عثمان يلتقي بالأعراب والواردين على المريد، يتقف الفصاحة منهم — ومن أدباء الكتاب كابن

1- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، مصر، ط2، 1975م، ص 83.

2- فوزي عطوي، الجاحظ، دار المعارف عصره، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط 2، 1998م، ص 13.

3- محمد عبد المنعم خفاجي، ابو عثمان الجاحظ، ص 95 وما بعدها.

وهب وابن الزيات، أخذ الجاحظ الكثير، كذلك من الثقافة الأدبية والنقدية، وبهم عرف ماهية الشعر، حتى ليقول: "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل بالإخبار، وتعلم بالأيام والأنساب"⁽¹⁾

حذق الجاحظ اللغة والشعر والأدب كما حذق علم الكلام وعلوم الدين وألم بالثقافات المترجمة ولم ينقطع عن القراءة ولم يشله فقره عن العلم، بل وجد فيه كل لذة، وأصبح ولوعاً به، شغوفاً بحياته من أجله، وبدأ يؤلف الكتب إلا أن الناس كانوا ينصرفون عنها، فلم تلق رواجاً ولا ذيوفاً وأخذ يؤلف الكتب وينسبها لغيره، فتلقى من الرواج والشهرة أكثر مما يقدر، وكل ذلك ليستطيع أن يعيش، وأن يدفع نفسه الخصاصة ومرارة الجوع وقسوة الفقر والحرمان،⁽²⁾ يقول الجاحظ: "إنني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطاب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه لنفسي، فيتواطأ الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته وفصاحته وأكثر ما يكون هذا منهم...."⁽³⁾

وفي خلافة الرشيد كان الجاحظ قد بلغ مبلغ الرجال واستكمل كل أسباب ثقافته وأخذ يجد في تأليف الكتب والرسائل، وفي عام 176هـ زار الرشيد البصرة بدعوة من واليها جعفر بن سليمان بن علي وشاهد الجاحظ من عظمة الخلافة ما شاهد، ولا شك أن اتساع الثقافة العربية في عصر الرشيد بترجمة الثقافات الأجنبية إلى لغة القرآن وحركة المعتزلة وتأثيراتها الفكرية الواسعة مما أمد الجاحظ الطموح بطاقات قوية من المعارف والعلوم وظل مقيماً بالبصرة عاكفاً على القراءة والكتابة، وهكذا بدأت شهرته تتعدى الآفاق، فأعجب الخليفة المأمون ممّا وصله من كتبه فاستدعاه وصدر ديوان الرسائل، فقال السهل بن هارون: "إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب."⁽⁴⁾

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 61 و63.

2- جورج غريب، المرجع السابق، ص 10.

3- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، ص 90.

4- محمد كرد علي، أمراء البيان، دار الآفاق العربية، مصر، ج2، 2003، ص 322 و323.

صفاته وأخلاقه

كان الجاحظ أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور، لا يعين المغيظ المحنق، يبدو السرور عليه إذا خطب وإذا كتب، وتغمره الغبطة، وتعتاده الدعابة، وخفة الروح في جيلة، لا تفزعه المظاهر، فطر على الوفاء لأصحابه والثبات على ودهم وعهدهم، كان يحافظ على أوقاته لا يضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد، بعيدا عن الفوضى، ويحب النظام في الجملة، إلا أنه كان لا يدخر المال إلى أيام العسرة وإذا أتاه ينفقه ولا يحسب للغد حسابا كبيرا.⁽¹⁾

أما شكله فقد اشتهر به وكثيرا ما اشتهر بلقبه الجاحظ، الدال على نتوء العين وحدقتيه وجحوظهما وفي لسان العرب تعني كلمة جحظ، الجاحظ والجحوظ، أي خروج مقلة العين وظهورها، ورجل جاحظ العين، إذ كانت حدقاته خارجتين،⁽²⁾ وليس لدينا برهان يثبت أن في شكل الجاحظ صفات جسمية زنجية، ولكنه شديد السمرة، إن المعلومات التي يمكن جمعها عن شكل الجاحظ من آثاره نادرة جدا، وجل ما وصل إلينا أنه كان قصير القامة، صغير الرأس، دقيق العنق، صغير الأذن.

ويجدر بنا في هذا المجال ألا نبالغ في قبح الجاحظ، فإن تاريخ الأدب القديم قد رسم له صورة ليس فيها شيء من الأناقة، إن الجاحظ قد خلد ذكره أسلوبه الكتابي الناصع الطريق.

ثم جاء الأدب الشعبي فاستغل فكرة ميل الجاحظ للدعابة والتهكم ليجعل منه بطل هذا الأسلوب أو راويا للنوادر المستملحة، كما استغل هذا الأدب الشعبي شكله ليغذي موضوع القبح، حتى نسب إليه دون حياء اعترافه بقبحه.⁽³⁾

ولم يكتف باستتكار أبيات شاعر مجهول أسماء الوظواط أحمد بن سلامة الكبتي يقول فيها:

1- ابن منظور، لسان العرب، ص192.

2- شارل بلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة دإبراهيم الكيلاني، د.ط، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ص99.

3- نفسه، ص100.

لو يمسح الخنزير مسخاً ثانياً
رجل ينوب عن الجحيم بوجهه
ولو أن امرأة جلت تمثاله
ورآه، كان له كأعظم واعظ¹
ما كان إلا دون قبح الجاحظ
وهو القذى في عين كل ملاحظ

وإن أشهر النوادر عن قبح الجاحظ هي التي انطقوه بها عن نفسه قال: "ما أخلجني إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتا ثم سألت الصائغ فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت لا أدري كيف أصوره، فأنت بك لأصوره على صورتك."⁽²⁾

يشبه الجاحظ سقراط بشاعة ودمامة، ولقد أهمل اسمه "عمرو" وسقطت كنيته "أبو عثمان" لتبقى له جاحظيته إذ كان يقول: "إن هذا الاسم لا يقع في الجاهلية والإسلام إلا على فارس مذكور، أو ملك مشهور، أو سيد مطاع أو رئيس متبوع."⁽³⁾

على أن أبا عثمان استطاع أن يرتفع بلقب الجاحظ زعم هجنته إلى أعلى المراتب، فهي هو أبو زيد البلخي ينعت بجاحظ خراسان، وأبو الفضل بن العميد يوصف بالجاحظ الثاني، وقد نازعه هذه التسمية غير واحد مشاهير العلماء والأدباء.

وكان النقاد إذا أرادوا مدح كبار الكتاب نسيبهم إلى مدرسته،⁽⁴⁾ ولكن صاحب الحيوان حوى النقيضين، فالى قبح وجهه، وتووء عينييه وقصر قامته أضاف خفة الروح والظرف وحسن المعاشرة ولطف النكتة إلى طبيعة أصيلة ناعمة في السخر والتهكم والمرح التواق إلى الدعابة حيث التصوير الصادق لنفسه الطليقة،⁽⁵⁾ والجاحظ يلتمس النكتة بشغف، ويوردها ولو كانت على نفسه فغير عجيب، وقد طبع على مثل هذه اللفتة على حياة، وأن يكون محبا للهو والاستمتاع والمجانة أحيانا، فيطيب له سماع الغناء، وتطيب له مجالس القيان، لكنه ظل بعيدا عن قيود الزواج ومشاغل الأولاد.

1- شارل يلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص 102.

2- نفسه، ص 103.

3- جورج غريب، المرجع السابق، ص 20.

4- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ط10، د.ت، ص 558.

5- ينظر: حنا الفاخوري، نفس المرجع، ص 567.

وهذه النزعة هي التي جعلته يهواُ بعبادات الناس وأنواع العصبية المذهبية، فهو ذو ذكاء وقاد وفساسة نادرة يميل إلى التكسب ولاغرو بعد أن اتسع صيته وضجت به الأسماع.⁽¹⁾

إن هذا اللقب الذي حمله أول مرة الرجل ذو الشكل القبيح أصبح فيما بعد عنوان شرف في مهنة الأدب، أحد أمراء البيان وعالم من علماء الكلام المرموقين وشيخ من شيوخ الاعتزال البارزين، وصاحب الفرقة الجاحظية.

مؤلفات الجاحظ وكتبه

ترك الجاحظ آثاراً فكرية، أدبية ودينية على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي، وقد ضاعت هذه الآثار ولم يبق إلا قليل منها وهذه الآثار مظهر لملكية علمية، ولذهنية عقلية، ولمطالعات وبحوث عميقة، إذ كان أبو عثمان أكثر الناس حبا للقراءة والتأليف، ولا يعلم أحد من العلماء أكثر تأليفاً منه،⁽²⁾ ويقول ابن العميد عن كتب الجاحظ: "إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً، والأدب ثانياً."⁽³⁾ هذه الكتب لم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين في الأدب، والإنشاء، والخطابة وكتاب الحيوان، وهو أقدم كتاب عربي في موضوعه، وكتاب المحاسن والأضرار وكتاب البخلاء وديوان رسائله،⁽⁴⁾ وأما الأقوال في المصنفات فكثيرة منها قول المسعودي: "كتب الجاحظ تجلو أصداء الأذهان، وتكشف واضح البرهان لأن نظمها أحسن نظم، ووصفها أحسن وصف، وكساها من كلامه، أجزل لفظ وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع، خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة، ورسائل في غاية الكمال ... ولا يعلم من سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه."⁽⁵⁾ فأثار الجاحظ وأفكاره وكتبه، تؤلف موسوعة علمية، وأدبية كاملة وهي خير منال للثقافة العربية والنضج الفكري والأدب البليغ والأسلوب الإنشائي الرفيع، وقد ضاع الكثير منها، وقد قالوا عنه إنه

1- شارل يلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص 99.

2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 284.

3- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، ص 250.

4- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 39.

5- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ط 2، 1972م، ص 593.

ترك ما ينيف عن مئة وسبعين كتابا حيث ساعده على كثرة التأليف امتداد عمره وانصراف العظماء عن استخدامه في قصورهم.

وإنه لمن الصعب جمع تلك المصنفات في فئات معينة مرتبة كما أن قارئ هذه الكتب وما حوته من آثار حفظه وتدوينه واستقرائه واستنتاجه يدرك سر إعجاب الأجيال بها، حتى كان الناس يترقبون في عصره صدورها كما ترقب اليوم ظهور الصحف والمجلات الذائعة، ولم يكن عند أبي عثمان أحب من الكتاب والعلم، وسنحاول إحصاء بعض هذه الكتب.⁽¹⁾

1. كتب في القرآن الكريم

- كتاب الاحتجاج لنظم القرآن وغريبه.
- كتاب خلق القرآن.
- كتاب الرد على الحد في كتاب الله.
- كتاب مسائل القرآن.

2. كتب في الأحكام

- رسالة في الميراث.
- رسالة في مدح النبذ (أهداها إلى الحسن بن وهب)
- رسالة في ذم النبيذ.
- كتاب في ذم الزنا.

3. كتب في الفرق والآراء

- كتاب أصحاب الإلهام ويسمى كتاب الرد على أصحاب الإلهام.
- الرد على اليهود.
- الرد على النصراني واليهود.

4. كتب في الأخلاق والمجتمع

- أخلاق الشطار.
- أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة.

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 567.

- رسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات في الأخلاق المحمودة والمذمومة.

5. في السياسة والاقتصاد

- رسالة في الخراج.
- رسالة في مناقب وعامة خند الخلافة.
- كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات.

6 في التاريخ والجغرافيا والطبيعات والرياضيات

- كتاب الأخبار وكيف تصح.
- كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية.
- كتاب المعادن.
- كتاب في طبقات المغنيين.
- كتاب الحيوان.

7 في الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية

- كتاب البيان.
- كتاب المحاسن والأضداد والعجائب والغرائب.
- كتاب عناصر الآداب.

8. موضوعات أخرى

- رسالة التربيع والتدوير.
- رسالة في العشق.
- كتاب الإخوان.

مميزات عصره

إذا أردنا الكلام على عصر الجاحظ، فلا نصور هذا العصر بأحسن من تصوير الجاحظ له ويتجلى ذلك واضحاً ودقيقاً من خلال كتاباته التي نجد في تضاعيفها تحليلاً وسهلاً شاملاً لوقائع الحياة التي كانت سائدة في عصره، ولعلّ النظرية القائلة بأن الإنسان ابن بيئته تجد تطبيقاً حيالها في أدب الجاحظ ولقد اجتهد من خلال كتاباته وآرائه في إبراز شخصيته وفلسفته، ثم أراد التعبير عن موقفه إزاء أنماط السلوك البشري في ضوء الحياة الاجتماعية أهل عصره. لقد جاء نتيجة ثمرة للعصر

العباسي الأول، والرابع الأول من العصر الثاني بمختلف فعالياته السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية والعلمية⁽¹⁾.

الجانب الاجتماعي في عصر الجاحظ

إنّ أساس الحياة الاجتماعية هو الحالة الاقتصادية في أي مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم، ولقد كانت الحياة الاقتصادية في عصر الجاحظ لا تكاد تستقر على أساس متين⁽²⁾، فكانت ظروفها غاية في التعقيد الحضاري والخروج عن المظاهر التي عرفت بها المجتمعات العربية الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعصور خلفائه الراشدين، فالمجتمع الإسلامي في العصر العباسي كان مزيجاً من الحضارات والأعراف والأجناس المتعددة، تشابكت تشابكاً غريباً في أفكارها وعاداتها وتقاليدها وأنماط تفكيرها. ولقد انقسم الناس من حيث الوضع الاجتماعي إلى خاصة وعامة، فالخلفاء العباسيون كانوا يعيشون في قصورهم المترفة بعيداً وفي معزل عن الرعية والعامة الذين يمنعهم الحرّاس والحجاب من الاقتراب منهم، حيث كان العامة يعيشون في فقر مدقع وضنك شديد⁽³⁾.

وقد صور أبو العتاهية حياة الفقراء والشعب في شعره تصويراً صادقاً ومن ذلك تصويره للغلاء في بغداد في قوله:

إنّي أرى الأسعار أسد	عار الرعية غالية
وأرى اليتامى والأرا	مل في البيوت الخالية
يشكون مجهدة بأصد	وات ضعاف عالية
من للبطون الجائعات	وللجسوم العارية ⁽⁴⁾ ؛

وأكثرأبو العتاهية في شعره من الدعوة إلى الزهد، والرغبة عن الملذّات والانصراف عن الدنيا، وذلك من أثر الحرمان والفقر، يقول من شعره:

1- علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، دون طبعة، ص 33.

2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 25.

3- أنظر: علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص 33-34.

4- علي شلق، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 2006، ص 24.

رغيف خبز يابس	تأكله في زاوية
وغرفة ضيقة	نفسك فيها خالية
تدرس فيها دفترًا	مستندًا بسارية
خير من الساعات في	دفع القصور العالية ⁽¹⁾

أمّا في الجانب الثقافي: فقد ازدهرت الثقافة العربية، وتألقت في أيام الدولة العباسية التي بلغت قمة المجد والفتنة قوة وحضارة وغنى وتلك هي العوامل الثلاثة التي ينمو بتأثيرها الفكر والثقافة والعلم، وكان من أهم ميزات الازدهار الثقافي ومظاهره حرية الفكر التي سرعان ما نجمت عنها مشاكل أخرى.

إذ مثل الجاحظ حرية عصره الفكرية خير تمثيل، في العلم والدين والأدب، ففي العلم استند إلى العقل في التحقيق، وفي الدين اتبع المعتزلة بما في تعاليمها من حرية عقلية، وفي مذاهبه الفنية اعتنق نفسه من كل قيد⁽²⁾.

إلى جانب ذلك تمكن العامة من الناس وخاصتهم أيضا من إرسال أطفالهم إلى الكتاتيب التي كانت منتشرة آنذاك في كل مكان، وإلى جانب الكتاتيب امتاز العصر كذلك بوجود السوق الأدبية المشهورة في بادية البصرة المعروفة بـ "سوق المرید" حين كان منهلا للثقافة العربية، وكان الناس يروحون ويغدون عليه للقاء الفصحاء من العرب، كما كانت المساجد أشبه بالجامعات فكانت حلقات الفقه أكثر الحلقات احتشادا بالطلاب، ومن الأسباب التي أعانت على إحداث الازدهار الثقافي، المجالس العلمية، وشيوخ المكتبات العامة وتزامن ذلك مع ظهور صناعة الورق واتخاذه وسيلة للكتابة فظهرت الكتابة ودكاكين الوراقين⁽³⁾.

الحياة الدينية: تميزت الحياة الدينية بالحرية ما فتح المجال لظهور الفرق والمذاهب الدينية.

1- علي شلق، الجاحظ، ص 25.

2- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 6.

3- علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ص 35.

إنَّ الجاحظ إمام من أئمة المعتزلة، إذ يقول عنه الأديب شفيق جبيري: "فإذا الحرية الفكر، في عصر الجاحظ صورة فالجاحظ صورة هذه الحرية"⁽¹⁾.

وبعد المذهب الاعتزالي من أكبر المذاهب التي عرفها عصر الجاحظ حتى وصل الأمر إلى اتخاذ الدولة له كمذهب لها والعمل بمبادئه: "وعلى هذا النحو لم يتكون للاعتزال أئمة أو باحثون ممتازون فقط، تكون هؤلاء الفلاسفة في العصر العباسي الأول، وهو العصر الذي بلغ فيه الاعتزال الذروة المأمولة، حتى تصبح له السيطرة الكاملة على الحكم في عهد المأمون والمعتصم..."⁽²⁾.

ولقد أدت استفاضة الحرية في عصر الجاحظ إلى انتشار الزندقة، بعد أن اشتدَّ التمازج العنصري بين الأجناس المختلفة، التي ضمتها الخلافة العباسية، فاختلفت الأفكار والعادات والمعتقدات، وعن كلِّ هذا فقد تعددت المناقضات التي بدورها أدت إلى ظهور اتجاهين مختلفين متضادين:

الاتجاه الأول: والتمثل في اللهو والتَّرف والمجون، أضف إلى ذلك ظهور الزندقة والشعبوية الدينية التي سعت إلى بعث المجوسية، والشعبوية القومية التي أرادت الحط من مكانة العرب.

أمَّا الاتجاه الثاني: فقد جاء ضد الأول فهو المحافظ المتمسك بمبادئ الدين الإسلامي، جاء ليشن حملة على الشعبوية، من بينهم الجاحظ من خلال كتابه "البيان والتبيين" و"البخلاء"⁽³⁾.

الحياة العقلية في عصر الجاحظ

لقد تشبعت الزندقة في العصر العباسي فجاوزت المسلمين إلى غير العرب، وشاعت في طبقات الأدباء والشعراء، وأدى الاختلاط الكبير بين الأجناس المختلفة إلى اختلاط ثقافي مثمر، غذى العقول المتعطشة، والنفوس الطامعة إلى النهل من رواد الثقافات المتباعدة، وبالتالي ازدهرت الحياة العقلية في عصر الجاحظ كثيرا، فقد ساهم الخلفاء بتشجيعاتهم واهتماماتهم بالحركة العلمية في شتى جوانبها، إذ أخذوا

1- شفيق جبيري، الجاحظ معلم العقل والأدب، دار المعارف، مصر، د.ت، ص 81.

2- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج4، العصر العباسي 2، دار المعارف، مصر، ط 2، 1975، ص 171.

3- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص 172.

يكرّمون الأدباء والشعراء والعلماء ويجالسونهم ويقربونهم إليهم، فأصبح العلم والأدب وسيلة إلى المناصب العالية والنفوذ والجاه.⁽¹⁾

وإذا كانت الدولة مزيجاً بين شعوب كثيرة، فإن عقلية الشعب العربي كانت آنذاك صدى لامتزاج الثقافات، وتلاقح الحضارات، ولتصافي الأجناس في غالب الأمر. كانت الثقافة العربية الإسلامية هي الذائعة، وهي أساس التكوين العقلي للطالب العربي في عصر الجاحظ، وقوامها علوم الدين، واللغة والأدب، وما يتصل بكل ذلك من علوم ومعارف، ولها أكبر الأثر في الفكر الإسلامي في عصر الجاحظ، كما كانت المورد العذب للناس جميعاً.⁽²⁾

ولقد ازدهرت حركة الترجمة في العصر العباسي الأول، عصر المهدي والرشيد والمأمون وهو العصر الذي ولد فيه الجاحظ ونشأ واكتمل تكوينه،⁽³⁾ فقد أشار الجاحظ في أكثر من موضوع إلى الترجمة، وإلى الكتب المترجمة الموضوعية على نسق تألّفي منظم بين أيدي العلماء نماذج قوية من التأليف تدعوهم إلى اختزانها، كما فتحت لهم آفاقاً من الموضوعات يبحثونها ويكتبون فيها.⁽⁴⁾

لقد حفل عصر الجاحظ بكثير من الأعلام في شتى الميادين كالأدب والشعر والنقد واللغة، من أشهرهم: أبو نواس، أبو العتاهية، أبو تمام، ابن قتيبة، سيبويه، الأصمعي والمبرد، وكان الجاحظ "درة العصر، وقمة ما بلغه من نهضة أدبية مرموقة، فأدبه مرآة مصقولة عكست لنا كل ناحية من نواحي عصره."⁽⁵⁾

1- ينظر: رابح العوي، فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال الترتيب والتدوير، الحيوان، البخلاء، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989م، ص 52.

2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 31.

3- فيكتور شلحت، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، ط3، دار المشرق، لبنان، 1992م، ص 20 و 21.

4- طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، مصر، 1979م، ص 148.

5- شفيق جبيري، الجاحظ معلّم العقل والأدب، مصر، ص 110.

الحياة السياسية

لقد عرف الجانب السياسي في العصر العباسي عدة مظاهر أثرت فيه حيث كان العنصر العربي في مطلع الدولة العباسية هو صاحب السيادة والسيطرة والهيمنة في كل شيء، ثم أخذ العنصر الفارسي يسيطر تدريجياً بداية من البرامكة في أيام الرشيد، وإن كانت القبضة العربية هي الأقوى ثم بدأت هذه القبضة تضعف وتتراخي شيئاً فشيئاً إلى أن سلمت الزمام للفرس بعد قتل الأمين، وتولى المأمون الخلافة، وظل الأمر كذلك إلى أن أقبل المعتصم فعمل على إبراز عنصر جديد هو الأتراك، وإن كانت قبضته وقبضة ابنه الواثق من بعده هما القويان صاحبتا الحل والعقد، فلما مات الواثق جاء المتوكل بواسطة "إيتاخ"⁽¹⁾ ومن حوله، حيث تجلى الاستبداد التركي في أبشع صورة، فالخليفة رهن مشيئتهم بقاؤه أو عزله أو قتله، فقد قتلوا "المتوكل" و"المستعين" و"المعتز" و"المهتدي"، ويمكن أن نجعل الحالة السياسية في العصر العباسي في ناحيتين ميزتا الحالة السياسية فيه منذ بدايته في ذي الحجة سنة 132 هـ وحتى سنة 255 هـ التي شهدت نهاية الخليفة "المعتز بالله"، وبداية "المهتدي بالله" وهي السنة التي تجمع الروايات على أن الجاحظ مات أثناءها (255 هـ)، وهاتان الناحيتان هما:

الناحية الخارجية: قد بلغت الدولة العباسية ذروة المجد فيها.

الناحية الداخلية: تنوعت فيها صفوف الاضطرابات والثورات ومظاهر الشغب.

هكذا إذن سنأتي إلى القول أنّ العصر الذي أنجب الجاحظ يعد من أزهى وأزهر العصور الأدبية، حيث كانت الحضارة الإسلامية سراجاً تثير العالم بعلمائها وأدبائها، وغدت الحركة الأدبية نشيطة بفضل تشجيعها من طرف الخلفاء⁽²⁾.

1- شفيق جبري، المرجع السابق، ص 111.

2- ينظر ولد يوسف مصطفى، الجاحظ وطه حسين، نشأة وفكره وأسلوباً، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، د.ت، ص

مصادر ثقافته

كانت ثقافة أبي عثمان ثقافة واسعة منوّعة، تحيط بسائر ألوان المعرفة في عصره، فهو عالم من علماء الدين، ومتكلم من الطراز الأول، فقد خاض في بحار العلوم والمعارف ما كان منها عربياً أصيلاً، وما كان مترجماً، منقولاً عن الأمم الأخرى، وكانت عقليته عميقة الغور، بعيدة المنزع، أفادت من الحكمة، والفلسفة اليونانية والآداب الفارسية والهندية، كما أفادت من تراث عصر الجاحظ وآدابه، وكان له شغف كبير بالبحث وعكوف طويل على الدراسة، ونشأته بالبصرة وتلقيه عن العلماء في حلقاتها الذائعة ومجامعها الحافة وعن رواة المسجدين و المربديين وعن الأعراب وجلوسه إلى أمثال النّظار والأصمعي وابن الأعرابي... وكلّ هذه العوامل والمؤثرات كان لها أضخم الأثر في ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعدّدة الألوان⁽¹⁾؛ فقد كان لشدة نهبه الفكري يستوفي قراءة كل كتاب يقع في يده فهو بعد خروجه من الكتاب توسع في مذاهب الأدب والدين والعلم والفلسفة، على أيدي طائفة من العلماء فكان أثره واضحاً في نمو عقله، جاء في معجم الأدباء. "سمع الجاحظ عن أبي عبيدة والأصمعي وابن زيد الأنصاري وأخذ النحو عن الأخفش والكلام عن النظام وتلقف الفصاحة عن العرب شفاهاً بالمرید"⁽²⁾، فلم يكن الجاحظ فيلسوفاً، ولكن كل ما فكّر فيه ومعظم ما عمله، إنّما كان بذهن فلسفي، لم يعلق بتحريف، ولم يغيب في دياجير غيب.

1. ثقافته العربية

إنّ الثقافة العربية مصدر أصيل في ثقافة الجاحظ العامة، ومنبع غزير من منابع علمه وألمعيته وموسوعيته وعبقريته، ولم تقف معارفه عند حدّ المنقول، بل تعدته إلى الأخذ من كل معقول، نبغ في الجدل والبحث والكلام والمناظرة وفي الفقه والحديث، وكذلك نبغ في اللّغة والأدب والشعر والبلاغة وغيرها، فكان عالماً فوق العلماء وأستاذاً من جهايزة الأدب وكاتباً من أعظم كتّاب العربية.

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 89.

2- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 25، 26.

كان الجاحظ يبتكر ويجدد، ويطلق نواحي مجهولة من جوانب الثقافة العربية فكتب في الطب والكيمياء والظواهر الجوية، والطبيعية والأخلاق وعلم النفس وألف في المعادن والأصباغ، كما ألف في التجارة، والاقتصاد وفي النبات، وكانت هذه الموضوعات جديدة في الثقافة العربية، وتعتمد الكتابة عليها على مصادر غير عربية وعلى معارف كثيرة عربية، وقد تمكن الجاحظ بعمق ثقافته من أن يستخدم كل المصادر الأصلية في بحوثه، ويتخذ من الشعر الجاهلي الإسلامي والقرآن الكريم والحديث الشريف مواد غيرة تعينه في التفكير والاستنباط، وهو حين يكتب ذلك، يرجع إلى المصادر لعربية، ولا يقف في دراساته عند القديم من الثقافة العربية بل يطرق أبواب كل جديد من الثقافات، فيكتب فيه بغزارة واسعة، وتمتاز ثقافة الجاحظ بالقرار والاستفاضة والموضوعية والاستطراد، وقد حذا حذوه في هذا المجال جميع الأدباء والعلماء في مختلف العصور كابن قتيبة في كتابه "عيون الأخبار"، ولقد كانت الثقافة العربية الأصلية والمقتبسة، والتي تجلت في كتب الجاحظ، دليل عبقريته واضحة وألمعية، فكرية عميقة، ومظهرا لثقافة الجاحظ الموسوعية التي أثرت في الثقافة العربية تأثيرا كبيرا وقربت الفلسفة إلى كل ذهن وعقل، فقد صاغها الجاحظ صياغة أدبية عالية، وهكذا اتسعت هذه الثقافة الجاحظية لكثير من ضروب المعرفة، حتى عُدَّ أوسع أهل زمانه ثقافة.⁽¹⁾

إن من مصادر ثقافة الجاحظ علوم عصره الكثيرة وقد ألم بها جميعا، فإذا به فقيه متكلم ومفلسف محدث، أديب وعالم، على أن أبا عثمان انفرد عن أستاذه بمقالة قامت عليها فرقته الجاحظية فهو فيما يجاري المعتزلة في أشياء كنفى الصفات على الله، والإقرار بالقدر، والقول بخلق القرآن، وينفرد عنهم بأشياء كالقول بضرورة المعارف وكونها مركبة في طباع العباد وليست من أفعالهم، ونعرف أنه في العصر الإسلامي انتشر القول بالقضاء والقدر ولعل نشوء هذه الحركة وتكوينها كان حول الحسن البصري في البصرة، ومنشأ الاعتزال كذلك كان فيها، وسبب تسمية المعتزلة فله دلالات عديدة منها أن الحسن البصري لما فارقه واصل بن عطاء قال: "اعتزل عني واصل". ومنها قول الناس حينئذ أن واصلًا وعمرا بن عبيدة الذي انتظم إليه اعتزلا

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 108 وما بعدها.

قول الأمة، ويمكن حصر تعاليم المعتزلة في نقاط خمسة: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، الأسماء والأحكام، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد تفرعت هذه الأصول الخمسة على آراء كثيرة، ومعظمها ردد على بعض الفرق ولا بد من ملاحظة أن الحسن وواصل لم ينقلا الفلسفة في أيامها فبقيت كتاباتهما ساذجة، تعتمد البلاغة العربية والفصاحة البدوية، فعلم الكلام مثلاً لم ينشأ إلا في أوائل العصر العباسي، بعد أن نقلت الفلسفات إلى العربية، فبرع فيه من برع وكان الجاحظ في الطليعة، فالجاحظ شيخ من شيوخ الاعتزال، انفرد عنهم بآراء خاصة، قامت عليها فرقته الجاحظية، وقد نسب إلى الجاحظ أقوال كثيرة في الاعتزال، ونتيجة هذه الثقافة العربية الإسلامية، بالإضافة إلى نشوء الاعتزال تكونت مواقف الجاحظ الفكرية والبلاغية وحتى الأدبية.⁽¹⁾

2. الجاحظ والثقافة الفارسية

للتقافة الفارسية نصيب كذلك من ثقافات الجاحظ، وقد اتصل أبو عثمان بالثقافة الفارسية بطرق عدة:

أ) مجتمع البصرة الذي تعيش فيه عناصر فارسية كثيرة وتذيع فيه من الألفاظ واللهجات الفارسية.

ب) الترجمات العربية للكتب الفارسية التي نقلها أمثال بن المقفع، بهران بن مرد وعلي بن زياد التميمي، وما ترجم من الفارسية على يدي بن المقفع "كليلة ودمنة" و"تعبان التاج" في سيرة أبو شروان وهو كتاب في تاريخ الفرس وأثر ثقافة الجاحظ الفارسية واضح في كتبه وخاصة كتاب "البيان والتبيين" فهو ينقل فيه كثيراً من النصوص الفارسية، وكان الجاحظ يعرف الفارسية، إذ كان يتكلم الفارسية ويعرف نحوها وأدبها فنراه يقول عن الزرافة لما رأوا أن اسمها بالفارسية "اشتركا وبلنك".⁽²⁾

كان الجاحظ يجيد اللغة الفارسية وفي كتبه نصوص فارسية تدلّ على معرفته بهذه اللغات وتوصل إلى معرفة الترجمات الفارسية، كما أنه عرف الفارسية بالدارجة معرفة تفوق معرفة معاصريه لها، وكل ذلك يدلّ على أن الجاحظ كان يعرف الفارسية

1- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 28-29.

2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 108 وما بعدها.

فضلا عن إمامه بالثقافة الفارسية المترجمة، وكان لهذه الثقافة (الفارسية) أثر واضح في أدب الجاحظ وخاصة فكره.⁽¹⁾

ثقافة الجاحظ اليونانية

اتصل الجاحظ بالثقافة اليونانية، وقرأ علومها من فلسفة وحكمة وغيرها، وكانت الثقافة اليونانية قد انتشرت في الشرق من عهد الإسكندر المقدوني من طرق عدة:

- 1- المدارس والمراكز المبنوثة في الشرق وكانت مواطن لهذه الثقافة.
- 2- اللغة السريانية فقد ترجم بعض اليعاقبة لنصارى السريان الكثير من كتب اليونان إلى السريانية، فلما اتصلوا بالعرب كانوا هم البادئين بنقل الكتب اليونانية إلى العربية من لغتهم السريانية.
- 3- الترجمات العربية العديدة لأصول الثقافة اليونانية، فقد ترجمت في عصر الجاحظ كتب "أرسطو" في المنطق وغيره، وكان من المترجمين عن اليونانية الحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفي، وثابت بن قرة.
- 4- المعتزلة: فقدت تعلم بعض المعتزلة اليونانية، وعكفوا على دراسة كتب الفلسفة، والمنطق، واستمدوا منها القدرة على الجدل، والدفاع عن الإسلام وعلوم ثقافته.
- 5- تشجيع بعض الخلفاء كـ "الرشيد" و"المأمون" ومن قبلهما "المنصور"، على ترجمة كتب الفلسفة اليونانية وخاصة ما كان منها متصلا بالطب.
- 6- ترجمة الكتب الفارسية إلى العربية، تسربت الثقافة اليونانية إلى لغتنا لأنها كانت قد عرفت عند الفرس من قبل، هكذا دخلت الثقافة اليونانية إلى العقل العربي، فقد تأثر الجاحظ بها تأثراً كبيراً وظهرت آثارها في كتبه، ففي كتابه "الحيوان" يتخذ منه أرسطو مصدراً من أهم مصادره ينقل عنه كثيراً ويستدل به كثيراً، وينقده كذلك في أحيان كثيرة.⁽²⁾

وثقافة الجاحظ اليونانية اتسعت بمجالسها لكثير من المثقفين بها، ومن مظاهر الروح الفلسفية عند الجاحظ: نذكر لقدامة حكيم المشرق ولأعين الطيب البصري

1- شارل بلا، إبراهيم الكيلاني، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ص 115.

2- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 112-114.

ويقول: «رأيت ناساً من الأطباء وهم فلاسفة المتكلمين منهم، معمر، ومحمد ابن الجهم وإبراهيم بن السندی»⁽¹⁾.

وقد ثار الجدل حول ما إذا كان الجاحظ قد تأثر بالبلاغة اليونانية وهو يضع أسس البلاغة في كتابه «البيان والتبيين» فباحث يذهب إلى أن الجاحظ تأثر بخطابة أرسطو إلى حدٍّ بعيدٍ، وأنَّ من المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة في الأسلوب استعماله القياس المضمر، وفي البيان والتبيين يذكر تعاريف البلاغة عند الأمم ومنها اليونان والرومان، ويرى اليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم في الخطابة ذكر، وأقسام الدلالة عند الجاحظ هي من تفكير أرسطو.

ومهما يكن فإن الجاحظ قد اتصل بثقافة اليونان المترجمة عن طريق المتكلمين والمحيدن لليونانية، وثقافتها من غيرهم من عناصر عربية أو غير عربية، كما كان متوسّعاً في الثقافة كلّها بما كان يقرؤه من الكتب.⁽²⁾

وفاة الجاحظ

في خلافة المعتز بالله (252-255) كان الجاحظ قد بات مكدوداً محطّماً، من إثر المرض والشيخوخة، وقد كان ينتظر أجله صباحاً ومساءً، وكان مع ذلك لا يزال يعيش في عالم الفكر، الكتب والقراءة، وفي شهر محرم من عام 255 هـ، كان الجاحظ قد بات جسماً لا قوّة فيه، ولا رويداً لا يستطيع بها الدفاع عن نفسه غوائل المرض والأحداث.

وفي أمسية من أمسيات شهر المحرم، كان جالساً في حجرة كتبه ومطالعته الغزيرة، فانهالت عليه أكداس الكتب فقطعت أنفاسه⁽³⁾.

وتروي كتب أخرى أن سبب موت الجاحظ ما أصيب به من داء الفالج والنقرس الشبيه بداء المفاصل، ولا يعول على ما قيل إنه أصيب بذلك لجمعه بين السمك واللبن على مائدة أحمد ابن أبي داود/ ما لم يكن شديد الحساسية، بالنسبة إلى هذا الجمع لا سيما وهو كان يشكو علته، ومن المعقول أن تكون تلك العلة الشديدة غير العلة التي

1- محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، ص 116 وما بعدها.

2- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 50.

3- محمد عبد المنعم خفاجي، الجاحظ أبو عثمان، ص 220.

أفعدته، إذ كان يشكو من حصة في الكلى لا ينسرح البول معها، انتقل الجاحظ إلى البصرة حيث لقي حتفه سنة مقتل المعتز واستخلاف المهدي وهناك رواية أخرى تفيد أن سقوط الكتب عليه أخدمت في صدره الأنفاس، وجاء في تاريخ الوردى:

"كان موته بالبصرة وقعت عليه مجلداته المصفوفة وهو عليل فأفعدته"⁽¹⁾

والجدير بالذكر أنه لما توفي الجاحظ رثاه أبو شراة القيسي بأبيات منها:

في العلم للعلماء إن	يتفهموه، مواعظ
وإذا نسيت وقد جمعت	ت، علا عليك الحافظ
ولقد رأيت الظرف دهرًا	ما حواه إلا فظ
حتى أقام طريقه	عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضى أمديه	وهو الرئيس الفائظ ⁽²⁾

لما مات أبو عثمان وصل نعيه إلى قصر الخلافة في بغداد وسرّ من رأى فأسف "المعتز بالله" أشد الأسف، ورثاه شعراء وأتبه الأديباء واهتزت البصرة لوفاته، ومات عن مائة وخمس من السنوات، قضاها في الكتابة والمطالعة والدراسة، والإفادة والمحاضرة، والمناظرة، وكان العالم العربي يُعرف من فكره الحر وأدبه الرائع وكتبه البليغة، ولم يترك أبو عثمان زوجًا ولا ولدًا فلم يتزوج طيلة حياته بل انصرف إلى الجوارى، وقد كان عقيمًا فلم يعرف أنه ولد له ولدٌ أو أعقب ذرية مدى حياته الطويلة، وهكذا مات أبو عثمان وسط الكتب التي أحبها طول حياته وكأنما كان يريد أن تصحبه في رحلته إلى العالم الآخر أن يدفن وسطها، فقد وع أبو عثمان الحيا بعد أن ابتلاها خيرًا وذاق أفويقها، غير كاره لها وودعها وودعته عن سن عالية، فترك جوار الناس إلى جوار الله وذهب إلى مثواه الأخير، يحيط به ذكر ذائع، وتلاميذ ملء السمع والبصر يقومون مقام الابن، ويعتزون به أبا روحيا كأعظم ما يكون الأديباء، وأكرم ما يكون الأبناء.⁽³⁾

1- جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، ص 14.

2- فوزي عطوي، الجاحظ، دائرة المعارف عصره، ص 16.

3- محمد عبد المنعم خفاقي، الجاحظ أبو عثمان، ص 160.

مفهوم الشعر عند

الجاحظ

يعود الخلاف القائم حالياً بين النقاد أساساً حول معرفة الموقف الحقيقي للجاحظ من اللفظ، والمعنى إلى الخلط الملحوظ أحياناً في تعبيره هو نفسه، عن هذه المفاهيم، فقد كان يطلق معاني ويريد ألفاظاً ويفسر مفهوم كليات ومفهوم أسماء الواردين في القرآن، وهذا الخلط في التعبير عن المفاهيم لم يتعرض لها النقاد على ما يبدو والحال أنه يشكل تناقضاً صريحاً، ولا يمكن التسليم به للجاحظ وأحسن وسيلة في اعتقادنا لنقادي هذا السبب هي أن نحاول فهم هذه القضية داخل نظامه الكلامي ليس هذا فحسب، بل لا بد من مساندة الجاحظ في مغامرته التي سلك فيها اللفظ والمعنى، لأن هذه وإن كانت لا تتوفر فيها كل المتطلبات المنهجية، العلمية، إلا أنها أكثر اتصالاً بأناه وبالتالي أكثر تعبيراً عن موقفه الحقيقي وهذا ما نعتزم القيام به.⁽¹⁾

لقد وضّح الجاحظ أنّ مهمة المتكلم الأولى هي التبليغ والتوصيل، وهذا لا يخرج عن إطار الدورة التواصلية بكافة عناصرها، ولأنّ المتكلم هو المبادر بالإرسال، راح الجاحظ يضع له خطوطاً تتعلق في عمومها باختيار الألفاظ السهلة المخارج الدقيقة المعنى وتجنب المعاني البعيدة، والغريبة اللذين يؤديان إلى التوعر والتعقيد، فيجعل ذلك دون الوصول إلى المعنى وتحقيق المقصد، وكذلك احترام السياق أو مقتضى الحال على حد قوله، والذي أسس عليه موضوعه⁽²⁾ "فمتى شاكل اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقاً ولذلك القدر لقفأ، وخرج عن سماجة الإكراه، وسام من فناء التكلّف كان قيماً بحش الموقع وباننفاع السامع، وأجدر أن يمنع صاحبه من تناول الطاعنين، ويحمي عرضه من اعتراض العيابين، ولا تزال القلوب به معمورة، والصدور مأهولة"⁽³⁾، فهذه الشروط وأخرى كالإيجاز

1- محمد صغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، من خلال كتاب البيان والتبيين، دار الثقافة، الجزائر، ط 1994، ص 139 وما بعدها.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 144.

3- نفسه، ج 1، ص 06.

مفهوم الشعر عند

الجاحظ

واستعمال ما قلّ ودلّ من الكلام كفيّلة بإنتاج مرسل نموذجي وعمرو بن عبّيد كان كذلك لأنّه كان: "لا يكاد يتكلم، وإذا تكلم يصل"⁽¹⁾، ولكي تكتمل الشروط التي وضعها، حرص على مشاكلة اللفظ للمعنى لتوضيح الدلالة، يقول في ذلك: "كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً، أو ساقطاً سوقياً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإنّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي، من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس طبقات، كما الناس أنفسهم في طبقات"⁽²⁾.

ومختصر القول أنّ الجاحظ كان يهدف من وراء هذه الشروط إلى تحقيق السليقة، والطبع التي كان يمتلكها الأعراب الفصحاء الذين طالما أعجب بهم، ففيهم تتحقق الحكمة والجمال والبلاغة وآلة البيان⁽³⁾.

ولأنّ الجاحظ كان معتزلياً بل من ضمن أئمتهم ما جعله يتبنى نظرة المعتزلة إلى اللفظ والمعنى وربطه بإعجاز القرآن الكريم⁽⁴⁾.

لقد قال المعتزلة باصطلاحية اللغة وأثبتوا المجاز في القرآن الكريم واللغة عموماً، وأخذوه سلاحاً لتأويل النصوص القرآنية التي لا تتفق مع أصولهم الفكرية واعتبروا القرآن مخلوقاً مركباً من حروف منظومة وأصوات مقطعة، فقد التمسوا إعجازه في نظم الأصوات والألفاظ وحسن تلاؤمها في جماليات الصياغة اللفظية فقد فهم المعتزلة والجاحظ على الخصوص أنّ تراكم التأويلات هو ما يمنح الحقيقة النصية معناها، أي باستئناف الأصل والعودة الدائمة إلى البحث في معاني الألفاظ واستنتاجها عن دلالات جديدة.

1- نفسه، ص 115.

2- نفسه، ج1، ص 144.

3- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص 7، 8.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص 8.

مفهوم الشعر عند

الجاحظ

وهنا ينحو العقل التأويلي إلى تحرير التصورات بالكشف عن أسس المعقولية في اللغة نفسها، كما ينحو إلى تجاوز منقولات المنطق الشكلية والعامّة بالنظر إلى المنطق نفسه كلغة لها نحوها ووظيفتها ورؤاها⁽¹⁾.

مفهوم المعنى عند الجاحظ

لقد أكدّ الجاحظ على أن المعاني مبسّطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية وإلى ما جاء به القرآن من أن الكلمات لا تتقدّم، لقد رجع الجاحظ إلى عدة مواضيع لأنها تشكل قاعدة ثابتة يجب اعتبارها والأخذ بها في نظامه هذا، فهو بعد أن ذكر كيف اضطر المتكلمون إلى إحداث ألفاظ لم تكن موجودة من قبل، قال: "إنّما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام، حيث عجزت الأسماء عن إتساع المعاني". ويرى أن المعاني الواسعة لا نهاية لها لأنها تمثل جميع الكائنات الحية، التي خلقها الله ثم وضعها في درجة ثانية من السماء التي تعبر عن هذه الكائنات، والجاحظ يصرح أنها عاجزة عن اتساع المعاني، كما صرّح في موضوع آخر بأنّها مقصورة وأخيراً الألفاظ التي تجيء بها لسد عجز الأسماء وتكميل ما بها من نقيض⁽²⁾، وهناك جانب يهم اللفظ والمعنى لا بد من التعرض له لتكتمل الصورة وهو:

رمزية المعنى واللفظ

إنّ أحسن وسيلة للاطلاع على موقف الجاحظ الحقيقي من اللفظ والمعنى يجب التماسها لا من صريح لفظه فقط وإنما وراء ألفاظه ومواقفه الرسمية، وهذا لا يمكن إلا بالدخول معه في رمزيته، ومتابعته في مواطن سره، وهذه الرمزية عند الجاحظ

1- هيثم سرحان، إستراتيجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003، ص 35.

2- محمد صغير بناني، النظريات اللسانية والأدبية والبلاغية، ص 140.

مفهوم الشعر عند

البيضاوي

نفسه هو الذي دلنا عليها، فهو يقول على لسان أحد الربانيين من الأدباء وأهل المعرفة: "فقد صارت الألفاظ من معاني المعارض وصارت المعاني في المعنى الجوّاري وجعل المعاني جوّاري ليس تشبيها عابرا كما قد يتفق لأي كاتب أو شاعر، إنها هي فكرة راسخة في ذهنه".⁽¹⁾

وكتاب البيان والتبيين فيه من أمثلة عن ذلك ما هو جدير بدراسة مستقلة ومن المواضيع التي كانت المناقشات البلاغية يدور حولها موضوع الحق الباطني الذي يخفي عن العامة، حتى أنهم إذا وجدوا من البلاغيين من يظهره لهم فهموا أن الحق الغامض قد يظهر أحيانا في صورة الباطل لمن لا يستطيع الغوص لإخراج المعاني، ولذلك نجد الجاحظ يناقش قول العتابي: "البلاغة إظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق".⁽²⁾ ويختار مجموعة من الأخبار والأشعار التي تدور حول المعنى نفسه كهذا البيت الذي يجعل اللفظ صحيفة والمعنى لبّا:

وفي الصمت سترٌ للغيّ وإنّما صحيفة لبّ المرء أن يتكلّمًا

وهناك مقطع آخر ساقه الجاحظ يدل دلالة واضحة على تفضيل الباطل على الظاهر نورد بأكمله، لأنه ساعدنا على حل مشكل آخر كثير حوله النقاش بين النقاد، وهو معرفة الفرق بين الفصل والوصل حين يقول:

تـرى الفـتيـان كـالـنـحـل وما يدريك ما النحل

وكل في الهوى ليـث وفيه

نابيه فـشـل

وليس الشأن في الوصل ولكن أن يرى الفصل

ويمكن تصنيف معنى هذه الأبيات بالاعتماد على السياق الذي وردت فيه وهو

كالتالي:

1- نفسه، ص 150.

2- المرجع السابق، ص 151.

مفهوم الشعر

الجواظ

الحق ← الباطل

المعنى ← اللفظ

داخل النحل ← ظاهر النحل

الفصل ← الوصل⁽¹⁾

تعريف اللفظ

يعتبره الجاحظ أرقى وسائل البيان، ولما كانت للفظ أهمية كبيرة توسع فيه وبيّن كيف يكون شكله مفردا أم مركبا؟ وأين تكون اللفظة في الكلام مقبولة، وأين لا تكون؟ وهكذا وضع الجاحظ الأسس الأولى للبالغة العربية وجعل اللفظ للسامع وهو الكلام المنطوق الذي يعتبره إشارة ودلالة، وبذلك يتضح أن اللفظ هو الكلام المستقل والمركب في وحدات وظيفية ترتبط بعضها ببعض من حيث علاقتها بالمحيط الذي تعبر عنه، ولا يحصل البيان دون هذه الألفاظ.

الجاحظ وقضية اللفظ والمعنى

اللفظ والمعنى من القضايا المهمة في النقد الأدبي، وهما ركنان رئيسيان من أركان القصيدة، بل يعدّهما المحدثون ركنا واحدا، وقد شغل بهما النقاد والبلاغيون القديما كثيرا، فكانتا من أعقد القضايا النقدية قديما، وأكثر قضايا النقد اضطرابا على الرغم من عناية أولئك النقاد بها، وقد عرضوا لها في الأدب عامة، غير أنها انعكست على الشعر فأدخلها بعضهم في منهج القصيدة وكيفية نظمها⁽²⁾، وقد نشأت قضية اللفظ والمعنى في الأوساط الكلامية التي جعلت من القرآن الكريم محورا

1- المرجع نفسه، ص 151

2- حميد آدم أثونبي، منهج النقد الأدبي عند العرب، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004، ص 69.

مفهوم الشعر عند

الجمام

لدراستها في إطار دفاعها عن القضايا الاعتقادية، وفي هذا المجال اتجه المعتزلة إلى تفسير القرآن تفسيراً بيانياً بالاستناد إلى المجاز بوصفه وسيلة من وسائل التعبير، وفناً من فنون القول له أمثاله في الشعر القديم وألحوا على تجريد المعنى القرآني والابتعاد عن أشكاله الظاهرية، وما لها من دلالات محسوسة تتنافى مع الأصل العام للتوحيد، وانقسم النص القرآني نتيجة لذلك قسمة واضحة، فأصبح هناك معنى مجرد قائم بذاته، وصورة مجازية هي بمثابة أوجه الدلالة على المعنى، وقد يكون لهذه الصورة أثرها في إقناع المتلقي أو استمالاته، ولكن المعنى القرآني قائم بذاته، ومستقل عنها وله هيكله الذهني المجرد الذي يمكن فصله عن كل ما يدل عليه من صورة مجازية⁽¹⁾، وتعالج قضية اللفظ والمعنى بنية العمل الأدبي وصياغته الشكلية، والمعنوية ومنطلق قضية اللفظ والمعنى هو التساؤل عن سر إعجاز القرآن الكريم، هل هو في لفظه؟ أم في معناه؟ كذلك جاء التساؤل في العمل الأدبي هل تكمن ميزته في لفظه (أي شكله) أم في معناه (أي مضمونه)، ويعتبر الجاحظ أول بياني أثار القضية، ودشن النقاش فيها، ويبدو أن الناس كانوا قبل أبي عثمان الجاحظ يصرون على النظر إلى المعنى قبل اللفظ، أي إلى المضمون قبل النية، أي إلى المدلول قبل الدال على ذلك أنهم كانوا يشعرون الشاعر ببيت واحد من كل شعره، فإذا فصلوا ودققوا فبييت واحد في كل قصيدة من قصائده، فكانوا يعدون مثل هذه الأبيات الجيدة في نظرهم أرقى ما جاءت به قريحة الشاعر، وأسميها بـ (بيت القصيدة)، وكتب التراث العربي شاهدة على ذلك⁽²⁾، لذا صار

1- عبد القادر هني، نظرية إبداع في النقد العربي القديم، دار الثقافة، الجزائر، د.ط، 1999، ص 40.

2- عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، دراسة تشريحية لقصيدة أشجيات يمانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003، ص 03.

مفهوم الشعر عند

الجامع

لتبيان السرقة في المعاني بين الشعراء، ولا نستبعد أن يكون الجاحظ قد حاول الرد على هذا التيار مرتين: مرة بأن يقرر أن الأفضلية للشكل لأن المعاني قدر مشترك بين الناس جميعاً، ومرة بأن لا يشغل نفسه بموضوع السرقات كما فعل معاصروه. ولهذا فإن الجاحظ كان يحس أن المعاني موجودة في كل مكان⁽¹⁾، وفي الميدان الأدبي يعتبر الجاحظ أول من أثار جدلية اللفظ والمعنى في مقولته المشهورة (والمعاني مطروحة في الطريق...)، فقد أبدى فيها مفهومه لقضية اللفظ والمعنى، والذي تبين أنه لم يكن من أنصار اللفظ على المعنى، ولا من الذين عنوا بالصياغة، والأسلوب، فحسب، كما أنه عني بالنص الأدبي بكل ما يحمله من معان عبّر عنها بالألفاظ، وأساليب، وأوزان، فالنص الأدبي الجيد هو ما كانت أفكاره، ومعانيه جيدة مقبولة في النفس، وكان أسلوبه جيداً وجميلاً، ومؤثراً، وإذا انفرد بإحدى هاتين الميزتين دون الأخرى أصابه الخلل، وخرج عن إطار النجاح الفني⁽²⁾.

أما عن عناصر الأدب الجيد فهي:

(أ) إقامة الوزن: أي اختيار الأوزان المناسبة للمعاني المطروحة.

(ب) تخير الألفاظ وسهولة المخرج: وهذا مبحث أفاض فيه الجاحظ، حيث ذكر من شروط الألفاظ الجيدة حسن اختيار الألفاظ لها، سواء مطابقتها للمعاني أو في تصويرها لبيئة الشاعر أو حياته.

(ج) كثرة الماء وصحة الطبع: ويريد بهما بعد الشاعر عن الافتعال المصطنع، وقد أطلق العرب تعبير كثرة الماء كناية عن الحيوية والجمال، وقد قرنه الجاحظ هنا بصحة الطبع، ليجعله عنصراً من عناصر النص الأدبي الجيد، فكما يتقنن الصانع في صناعته، والرسام، والنسّاح في اختيار مواد رسمه أو نسجه، كذلك الشاعر يختار لنفسه الأسلوب الذي يحمل عناصر النجاح المتمثلة في المعاني،

1- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 98.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص، ص، 7، 8.

مفهوم الشعر عند

الجاحظ

الصياغة، والروح الشاعرية، المناسبة الدالة على طبع شعري موات⁽¹⁾، لقد قرن الجاحظ هذه العناصر الثلاثة معا في قوله: "إذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة..."⁽²⁾.

وهكذا نجد خلاصة رأي الجاحظ في النص الجيد بكونه يعبر عن معنى جميل، شريف بألفاظ مؤلفة غير متنافرة، لقد انتصر الجاحظ لمذهبه الاعتزالي أين نظر لقضية اللفظ والمعنى ورد الإعجاز في القرآن لجانب اللفظ واهتمامه به، ولكن مع عدم إهمال المعنى وإغفاله، كذلك المعتزلة، فنجد العتابي يقول: "الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخراً أو أخرت منها مقدماً أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقه وتغيرت الحيلة".

فالجاحظ من أنصار الفئة التي لا تركز على المعنى ولكنها تهتم بالمقابل باللفظ وحده، فهو يعتبر رئيساً لهذه الفئة قال: "حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة"⁽³⁾، كما يوحي إلى أن الصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً، ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت، فعلى ذلك يبني نظريته المعروفة: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي، والبدوي، والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وصناعة، وضرب من النسيج وحسن من التصوير"⁽⁴⁾.

1- ابتسام مرهون، ناصر الحلاوي، المرجع السابق، ص 145.

2- الجاحظ، المرجع السابق، ص 82.

3- مليكة حفان، إعجاز القرآن بين مبادئ اللغة وأصول العقيدة، www.dinanalrab.com، ص 40.

4- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 69، 70.

مفهوم الشعر عند

الجاحظ

فالجاحظ اهتم بالفصاحة اهتماما شديدا، فدراسته للألفاظ من أوسع ما وصل إلى العصر الحاضر من عهده، فقد تكلم عن ملائمة الألفاظ، وتماتلها، فرأى أن اللفظ لا ينبغي أن يكون عاما وساقطا سوقيا، كذلك لا يجب أن يكون غريبا وحشيا، فتلك العناية باللفظ دعتة إلى أن يقول: "والمعاني مطروحة في الطريق".

إن الجاحظ قد ثمن النص الأدبي من خلال إثارة اللفظ على المعنى، فنقل النقد من الدراسات القرآنية إلى ميادين الدراسات الأدبية، وبذلك عدّ أنه:

1- من أوائل الذين وضعوا مقاييس اللفظ حينما تكلم عن تنافر الألفاظ.

2- فصل بين اللفظ والمعنى، فقد جعل للألفاظ جهابذة عارفين وللمعاني نقاد في قوله: "قال بعض جهابذة الألفاظ، ونقاد المعاني القائمة في صدور الناس"⁽¹⁾، والمتمعن في قول الجاحظ والناقد المجيد الذي يفهم الآراء النقدية، يرى عكس ما ذهب إليه النقاد، فإذا ما أردنا أن نفسر ما قصد إليه الجاحظ الذي لا ينحاز إلى الألفاظ وحدها، ولا إلى المعاني وحدها، لن نقول أكثر مما قاله الناقد عبد القاهر الجرجاني الذي سبق المعاصرين في تأويله وتوضيحه بعد أن فهم الناس له قديما يقول: "إعلم أنه لما كان الغلط الذي دخل على الناس في حديث اللفظ كالداء الذي يسري في العروق ويفسد مزاج البدن... وذلك أنهم لما جهلوا شأن الصورة وضعوا لأنفسهم أساسا وبنوا على قاعدة، فقالوا إنه ليس المعنى واللفظ، ولا ثالث، وأنه كان كذلك وجب إذا كان أحد الكلاميين فضيلة لا تكون لآخر... ولمّا اقرّوا في نفوسهم حملوا كلام العلماء فيما نسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره وأبوا أن ينظروا في الأوصاف التي اتبعوها، نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ، مثل قولهم: "لفظ متمكن غير قلق ولا باب به موضعه.."⁽²⁾.

1- الجاحظ، الحيوان، ص 70.

2- عبد القاهر الجرجاني، المرجع السابق، ص 142.

مفهوم الشعر عند

الجاحظ

ولمّا لم يكن فهم الناس دقيقاً لها ذهب إليه الجاحظ، كما كشف عبد القاهر كثرة أنصار اللفظ كثرة مفرطة بعد الجاحظ حتى قال ابن رشيق: "أكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى..."⁽¹⁾، ولم يفصل الجاحظ بين قيمة المضمون والشكل أو بين اللفظ والمعنى، إذ لا يوجد شكل مجرد ولا مضمون خارج نطاق الشكل بكل ما دعا إليه، هو إيجاد الشكل المثالي للمضمون، ثم صياغة كل ذلك في أسلوب ممتاز وموسيقى مؤثرة، ولعل أوضح النموذج لذلك التصوير الفني الكامل لوصف الذباب عند عنتره ابن شدّاد قال: "ما كان عنتره في صفة الذباب فإنه وصفه فأجاد وصفه فتحاشى معناه جميع الشعراء فلم يعرض له أحد منهم، وقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى وفي اضطرابه أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر"⁽²⁾.

يريد الجاحظ من الشاعر أن يرسم بوضوح وان يصور بقوة، فهو يشبه الناقد الفني الذي يميل إلى رسم المصورين الكلاسيكيين ولا يرغب في الرسم الانطباعي الذي لا يكون واضح المعالم ولذلك فإن الإفراط عند رسم الصورة الشعرية يجعل الجاحظ شديد النفرة منها، ويتضح عنده الميل إلى المضمون أكثر من الشكل قال: "والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال الشاعر:

وكأنما وجهت إليه إلا أن تمس الأرض أربعه⁽³⁾

ما معنى قول الجاحظ (المعاني المطروحة في الطريق)؟ أتري هذا خطأ من قيمة المعنى الذي يجعل له الجرجاني في المقام الأول هنا ينقد الجرجاني بفهم دقيق إلى سر مشكلة طال حولها الأخذ والرد، فوجه رأي الجاحظ توجيهها ملائماً لما نعتقد أن الجاحظ رمى إليه، فمصطلح (معنى) كما استعمله الجاحظ ذو دلالة دقيقة، فهو

1- نفسه، ص 143.

2- نفسه، ص 145.

3- حميد آدم أتويني، المرجع السابق، ص 73.

مفهوم الشعر عند

الجاحظ

إنما يتحدث به عن الأدوات الأولية وتفسيراً لذلك يقارن الجاحظ بين الكلام ومادة الصانع فهو يضع من الذهب أو الفضة خاتماً، فإذا أردت الحكم على صنعته وجودتها نظرت إلى الخاتم من حيث أنه خاتم، ولم تنظر إلى الفضة أو الذهب الذي صنع منه، فهذه المادة الأولية تشبه المعنى المطروح وليس فيها تفاضل إن شئت أن تحكم في جودة الصنعة نفسها ولهذا قال الجاحظ بعد أن أورد رأيه في شيوع المعاني: "إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيير اللفظ وسهولة المخرج..."⁽¹⁾، وإنما الذي دعا إليه الجاحظ وإضرابه إلى تبين هذا المذهب خوفهم من فكرة الإعجاز فلو أن الفضل كان قاصراً على تلك المادة الأولية التي سميت (معنى) بطل أن يكون للنظم فضل تتفاوت به المنازل، وإذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون في الكلام معجز، ... أي أصبح الإعجاز أن يحتوي الكلام على حكمة واستخراج معنى غريب أو شبيه نادر، وفي هذا تسوية بين القرآن وأية مهارة ذهنية إنسانية⁽²⁾، وعلى أساس هذا التفسير يكون الناس الذين ظنوا أن (المعنى) في نظرية الجاحظ يشير إلى عدم التفاوت في (العملية الفكرية) القائمة وراء البناء الفني قوماً مخطئين في تصويرهم، فهم قد أسأوا فهم ما رمى إليه الجاحظ، لأنه لم يتجاوز ما يعنيه (المادة الأولية) التي تتولاها الرؤية بالصياغة، فخلطوا بذلك بين تلك المادة الضرورية المشاعة، وبين الرؤية الفكرية التي تؤسس وحدة كاملة من اللفظ والمعنى تأسيساً متفاوتاً في القدرة على التأثير، فأرجعوا الفضيلة إلى اللفظ وحده⁽³⁾.

يقول الجاحظ: "إن متمن النظر في علاقة التقابل بين الثوب الرفيع والآخر الوضيع يلحظ أن القيمة والجمال مقابلان للقبح وللضعف، فكأن القيمة والضعف

1- الجاحظ، الحيوان، ج3، ص 165.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 162.

3- أحمد الوردوني، قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2004، ص 390.

مفهوم الشعر عند

الجاحظ

منصرفان إلى المعنى، والجمال والقبح منصرفان إلى اللفظ، إن فكرة الثمن سواء أكان درهما وثلثا أم آلافًا، موصولة بالمعنى ومدى ما يتوفّر عليه من فائدة، أمّا جمال الهيئة وجدتها أو قبحها فموصولان باللفظ ومسالك الأداء التعبيري، إذا خلا المعنى من القيمة انعدمت الفائدة، وإذا زالت الجمالية من اللفظ لم يعد له في النفس أثر⁽¹⁾.

وفي متابعتنا للنتائج التي تترتب على نظرية الجاحظ في غريزية الشعر وعرقيته، نصل إلى مسألتين هامتين، أولى تميزه ضمن الذين يتكلمون بلسان العرب بين العرب والمولودين، والثانية تميزه بين العرب كأمة وغيرهم من الأمم الأخرى، من ناحية واللغة العربية وبقية اللغات من ناحية ثانية⁽²⁾.

ويروي الجاحظ ما يوضح هذا الفرق على لسان إبراهيم بن هاني، وهو يقول: "من تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا"⁽³⁾، ويقول الجاحظ كذلك مؤكداً هذا الفرق: "ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ألفاظ مسخوطة ولا معاني مدخولة، ولا طبعاً رديئاً ولا قولاً مستكرها"⁽⁴⁾.

ليس غريباً في هذا المنظور أن يصل الجاحظ إلى القول أن: "بلاد الأعرابي الخالص معدن الفصاحة التامة"، ولفصاحة مجرى معيّن كما يعبر الجاحظ، فإن العتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته، والمصروف من حقه، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، فمن زعم أن البلاغة

1- نفسه، ص 391.

2- ينظر، أدونيس، الثابت والمتحول، تأصيل الأصول، بحث في الإتياع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ط1، 1977م، ص 48، 49.

3- أدونيس، الثابت والمتحول، ص 49.

4- أدونيس، المرجع السابق، ص 51.

مفهوم الشعر عند

الجاحظ

السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة والكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب كله سواء، وكله بياناً... وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء، فالبلاغة ليست مجرد الإيصال والإفهام، وإنما هي الإيصال والإفهام بمقتضى الفصاحة العربية وأصولها، والفصاحة لغة لا فكر، أي لفظ لا معنى، أو هي كما نقول اليوم شكل لا مضمون، ومن هنا يميز الجاحظ بين اللفظ والمعنى، ويجهل الأهمية الأولى للفظ⁽¹⁾.

لم يفصل الجاحظ بين اللفظ والمعنى إلا ليؤكد فرادة اللغة العربية وتميزها، وكأنه أراد أن يقول أن الإنسان لا يتميز بالمعاني التي يعبر عنها، بل يتميز باللغة التي يعبر عنها، فالمعاني عامة مشتركة أما اللفظ فمقصود خاص، والقيمة الأخيرة لثقافة شعب ما، تتبع مما هو خاص به، مقصور عليه، لا مما هو علم مشترك إذ لا سبيل إلى معرفة إمتيازه، وتفرد الثقافتين، أي عبقريته الخاصة إلا بمعرفة الشيء الذي يفرد عن سواه، وهذا الشيء بالنسبة إلى العرب هو اللغة، أو هو بتحديد أدق الشعر.

APPROUVÉ

وانطلاقاً من هذا الفصل بين اللفظ والمعنى، يؤكد الجاحظ القضايا التالية:

أولاً: مشاعبة المعاني، ولا نهايتها، حتى أن الجاحظ يكاد أن يوحي بالقول أن المعاني ليست موضع جدل فهي تشبه الهواء الذي يتتشقه الجميع ولذلك ليست المسألة أن نسأل ماذا قال الشاعر؟ بل أن نسأل كيف قال؟ أن المعاني مبسوبة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني (الألفاظ) مصورة معدودة، ومحصلة محدودة⁽²⁾، ولهذا فإن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، وعلى هذا ترتب نتيجتان:

1- المرجع السابق، ص 52.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 470.

مفهوم الشعر

البنية

-الأولى: ليس هناك أحد من الشعراء أحق بالمعنى من غيره إذ لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيهه مصيب تام وفي معنى غريب، عجيب أو في معنى كريم شريف أو في بديع مخترع، ألا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه، أن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، فإن لا يدع يستعين بالمعنى، ويجعل نفسه شريكا فيه، كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم، وأعارض أشعارهم ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه(1).

-الثانية: هي أن المعاني ثابتة أبداً، صالحة أبداً كالألفاظ فليس في الأرض لفظ يسقط البتة ولا معنى يبور حتى لا يصلح لمكان من الأماكن، وهذا يعني أنه لا عيب في ترداد المعاني وبعض الألفاظ.

ثانياً: المشاكلة بين المعاني وألفاظها، ولئن كانت المعاني مشاعة أو مبسطة، فإن على الألفاظ أن تكون هي كذلك مبسطة، وهكذا لا يحق للشاعر أن يهذب لفظه جداً وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لا ينطق إلا بلب اللب، وباللفظ الذي قد حذف فضوله، واسقط زوائده حتى عاد خالصاً لا تشوب فيه، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم(2).

والمشاكلة بين الألفاظ والمعاني، من ناحية المبدأ العام تتضمن مشاكلة بين اللفظ والغرض الذي يحمله المعنى، فكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكنائية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال، وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك وداخل في باب المزاج والطيب، فاستعملت فيه الأعراب، انقلبت من جهته. وإن كان في لفظه سحق

1- نفسه، ص 471.

2- نفسه، ص 472.

مفهوم الشعر عند

الجامع

وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس، يكرهها. ومن هنا كان الأعراب يفسد نواذر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب، لأن سامع ذلك الكلام، إنما أعجبه تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللغة وتلك العادة، فإذا دخلت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه - حروف الأعراب والتحقيق الثقيل وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته⁽¹⁾.

وهذه المشاكلة النوعية بين اللفظ والغرض، تقترن بمشاكلة كمية بين أقدار المعاني وأقدار الألفاظ، وإنما على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردة، البائتة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة والجهات الملتبسة⁽²⁾.

ثالثاً: الشكلية، أو الأسلوبية وهي براعة الشاعر الخاصة وفرادة الطريقة التي يعبر بها: لكل قوم ألفاظ حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون، فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها، ليديرها في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللفظ، لكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها، فلم تلزق بضاعتهم، إلا بعد أن كانت مشاكلا بينها وبين تلك الصناعة، والنسجة التي يصل إليها الجاحظ هي: "لكل صناعة شكل"⁽³⁾.

ولعل خير ما يوضح هذه الشكلية التي يقول بها الجاحظ مثل يضربه فيشبهه المعنى بالجارية، واللفظ بالثوب، فالجارية موجودة، بقوة الحياة والواقع، وإنما الشأن والجهد في كيفية عرضها وإبرازها، صارت الألفاظ في معنى المعارض (الملابس

1- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 473، 474.

2- نفسه، ص 52.

3- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 473.

مفهوم الشعر عند

البيضاوي

والجميلة)، وصارت المعاني في معنى الجواري، فالشكلية لا تعني التكلف والمبالغة والتعقيد مما يطمس حسن المعنى، تماماً كما تطمس الثياب المفرطة في تأنفها وبهرجتها، حسن الجارية، أنّ الشكلية كما يفهمها الجاحظ ترادف الطبع، أو هي الطبع بالذات، وأن يكون الشعراء مطبوعين يعني أن المعاني تأتيهم سهواً رهواً وتنتال عليهم الألفاظ إنثيالاً، أي تتدفق عفواً بلا تكلف⁽¹⁾.

اللفظ والمعنى عند النقاد القدامى

* **اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة:** تدل مؤلفات ابن قتيبة على تعدد مناحي اهتمامه، فبعضها يمثل العناية بغريب اللغة وبعضها يتناول النحو، كما أن صنفاً ثالثاً منها مستلهم من عصبيته لأصحاب الحديث ومن عدائه للمعتزلة، ويمثل الشعر ميداناً رابعاً من تلك الميادين التي استأثرت بجهد، وعلى الرغم من تعدد ضروب هذا النشاط فإننا نستطيع أن نستبين من وراء هذا الجهد حوافز وغايات معينة، فابن قتيبة يكمل دور الجاحظ في الدفاع عن العرب والرد على الشعوبية ويتخذ هذا الرد صورة مباشرة في مثل (كتاب العرب وعلومها)⁽²⁾، ويعتبر ابن قتيبة من النقاد الذين أولوا عناية فائقة لقضية اللفظ والمعنى، فهو يرى أن لكل من اللفظ والمعنى مدلوله الخاص، فمدلول اللفظ عنده يريد به النظم والتأليف الممثل في اللفظ المفرد والوزن والروي، فحسن اللفظ إنما يعني صحة الوزن وحسن المعنى، فهو يعني الفكرة التي يتبين عنها البيت، فهو يعلّق على بيتين للمرقش عدّهما الأصمعي من مختاراته:

هل بالديار أن تجيب صمم لــــو أن
حيّاً ناطقاً كالم

1- المرجع السابق، ص 474.

2- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 104.

مفهوم الشعر

الجمالي

يأبى الشبـاب الأقبـور

ولا تغبط أخاك أن يقال حكم

فيعلق ابن قتيبة على هذين البيتين فيقول: "والعجيب عندي من الأصمعي إذ أدخله في متخيره وهو شعر ليس بصحيح الوزن ولا حسن الروي ولا متخير اللفظ ولا لطيف المعنى..."⁽¹⁾، من أبرز الفروقات بين الجاحظ وابن قتيبة هو اختلافهما في النظر إلى مشكلة اللفظ والمعنى، فبينما انحاز الجاحظ إلى جانب اللفظ، ذهب ابن قتيبة مذهب التسوية ولهذه القضية ركنان (اللفظ - المعنى) ومميزان (الجودة - الرداءة)، ولا بأس أن يتجه ابن قتيبة في نحو هذا المنطق - وإن كان يكرهه علما- فيجد أن الشعر أربعة ضروب لا تسمح العلاقة المنطقية - في نظره- بأكثر منها:

أ. لفظ جيد ومعنى جيد

ب. لفظ جيد ومعنى رديء

ج. لفظ رديء ومعنى جيد

د. لفظ رديء ومعنى رديء

وقد استعملنا لفظي (الجودة والرداءة) وإن كان ابن قتيبة لم يستعملهما وإنما استعمل أحيانا : (ضرب حسن لفظه فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى أو ضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه)⁽²⁾، ولم يستعمل لفظتين حاسمتين في دلالتهما وإنما فعل ذلك ليكون أبعد عن الحدة التي تستشف من قولنا (جيد ورديء) وآثرنا إلزامه بلفظتين لكي لا تضطرب عليه القسمة المنطقية، فالمسألة إذن مسألة صلة بين اللفظ والمعنى وعلاقة الجودة في كليهما معا هي المفصلة وهذا يعني أن المعاني نفسها تتفاوت، وإنما ليست كما زعم الجاحظ (مطروحة في طريق)،

1- قصي الحسن، النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة طرابلس، لبنان، ط1، 2003، ص331.

2- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 108.

مفهوم الشعر عند

الجمام

ويستشف من أمثلة ابن قتيبة أن المعنى عنده قد يعني الصورة الشعرية مثلما يعني الحكمة، ولكن هذه الأمثلة نفسها تشير إلى أنه يستمد حكمه من بيت واحد أو بيتين أو ثلاثة في الأكثر.

إن قضية (اللفظ والمعنى) لن تتناول العمل الأدبي كله بحيث تتطور إلى ما نسميه (الشكل والمضمون)، ولا هي استطاعت أن تقترب مما قد يسمى (الصلة الداخلية) بين هذين، ولعلها كانت ذات أثر بعيد في صرف النقد عن تبين وحدة الأثر الفني في مبناه الكلي، غير أنها رغم ذلك أسلم من الانحياز السافر إلى جانب اللفظ⁽¹⁾، وإلى جانب معادلة اللفظ والمعنى وقف ابن قتيبة عند قسمة ثنائية في النظرية الشعرية، فقد كثر الحديث في عصره عن الطبع والتكلف، دون تحديد لهذين المصطلحين، فتناولهما بن قتيبة بالتفسير والتمثيل، وقد خفي على الدارسين المحدثين أن قلة (المصطلح النقدي) لدى ابن قتيبة جعلته يستعمل هاتين اللفظتين بمدلولات مختلفة، فالتكلف حين يكون وصفا للشاعر مختلف عن التكلف حين يكون وصفا للشعر⁽²⁾، ويشرح لنا بن قتيبة كيف يظهر التكلف في الشعر والشعراء، خصوصا عندما ينظر فيه العلماء فيقول: "والتكلف من الشعر، وإن كان جيّدا محكما، فليس به خفاء على ذوي العلم، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير، وشدّة العناء ورش الجبين، وكثرة الضروريات، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة بالمعاني غنى عنه"⁽³⁾.

ويذكر ابن قتيبة سمة للتكلف في الشعر - سوى رداءة الصنعة- وتلك السمة (أن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى غير لفظه) وهذا مقياس هام لأنه أول الطريق إلى الوحدة الكلية في القصيدة عامة، وفقدان "القرآن" بين الأبيات

1- نفسه، ص 109.

2- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص 109.

3- قصي الحسن، النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، ص 332.

مفهوم الشعر عند

الجمام

ليس من صفات شعر المنقحين، ومن ثم يتضح لنا تماماً أنّ لفظة المتكّلف إذا اقترنت بالشاعر عنت شيئاً متميزاً عن معناها حين يوصف بها نوع الشعر ولذلك قال ابن قتيبة في وصف أبيات للخيل: "وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة"⁽¹⁾، وتقابل لفظة (الطبع) ما سمّاه الجاحظ (الغريزة) وهذه الثانية ترد عند ابن قتيبة أيضاً إذ يقول في تعليقه عسر قول الشعر: "إنه قد ينشأ من عارض يعترض على الغريزة" أي يؤثر في الطبع*.

اللفظ والمعنى عند عبد القاهر الجرجاني

يعتبر الجرجاني من البلاغيين الأقدمين، الذين اهتموا بمسألة اللفظ والمعنى، وأولاهها عناية فائقة، فقد قام بإصلاح مسار الدرس البلاغي، وكان له الفضل في وضع علمي البيان والمعاني، ومبينا أن بلاغة القرآن إنما تكمن في أساليبه ونظمه، لذا فقد اعتبر عبد القاهر الجرجاني مرحلة جديدة هامة في تاريخ الدراسات البلاغية العربية. إن قضية اللفظ والمعنى عند الجرجاني كانت وليدة القرآن، والجدال الذي أثير حول إعجاز الكلام الربّاني، لذا كان لزاماً علينا رصد ملامح هذه المسألة والإفادة من الجهود والآراء السابقة لفترة عبد القاهر مبينين أن الجرجاني كان له السبق في هذا الميدان لذلك يرى كثير من الباحثين أن البلاغة العربية قد استقرت أركانها وقويت دعائمها، ووصلت إلى قمة نضجها على يد عبد القاهر الجرجاني خاصة من خلال كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة).

فقد كان شغوفاً بالعلم والمعرفة ولا أدل على ذلك قوله في بداية كتابه (دلائل الإعجاز) عن العلم وفضائله، الذي تميز بها الإنسان عن باقي المخلوقات: "لأننا إذا تصفّحنا الفضائل لتعرف منازلها في الشرف وتبين مواقعها من العظم، نعلم أيّ أحق منها بالتقديم وأسبق في استجاب التعظيم، وجدنا العلم أولها بذلك وأولها هناك

1- نفسه، ص 333.

* الطبع: قوة الشاعرية أو الطاقة الشعرية وقد تعني أيضاً المزاج.

مفهوم الشعر عند

الإمام

... هو الوفي إذا خان صاحب، والثقة إذا لم يوثق بناصح لولاه⁽¹⁾، إلى أنه يقول:
"فهذا في فضل العلم لا تجد عاقلا يخالفك فيه"⁽²⁾.

دلائل الإعجاز وعلاقتها بقضية اللفظ والمعنى:

في خضم تطرقه لنظرية الإعجاز، بسّط كل مباحث علم المعاني والبيان، أصلاً قائماً على اللفظ والمعنى، وعلى نظمهما، نظماً منسجماً، ورغم التباين في الرؤى للقضية، إلا أن الجرجاني لم يكن منحازاً لأي مذهب بل نظر إلى الألفاظ من جهة دلالتها على المعاني في النظم مؤسساً لذلك نظرية في النظم⁽³⁾، هذه القضية المبنية على عنصر اللفظ والمعنى، فقد ربط بينهما ربطاً محكماً وله في الألفاظ مذهب غاية في الطرافة والأهمية وحسن الفهم، فهو يذهب إلى أنه مهما أوتيت الألفاظ مفردة من أوصاف فليست مقصودة لذاتها حتى وإن كان ذلك فإن الأمر لا يعدو الناحية الشكلية التي تؤثر في تأليف اللفظة مع قرينتها في التركيب الذي يحرص عليه ناقداً كثيراً⁽⁴⁾، وتحليل عبد القاهر لهذه المشكلة يمثل إحداث نظرية نقدية تقاس بها جودة الكلام وبلاغته، لأنها تبين هذا التلاحم والتآزر التام بين اللفظ والمعنى، ويبدو لنا جلياً من كل هذا أن عبد القاهر الجرجاني قد رد إعجاز القرآن إلى خصائص أسلوبه، ونظمه وراء جمال اللفظ والمعنى، أي التركيب والصنع التي اعتبرها صورة عامة غير منفصلة عن سياقها، لأن دلالة اللغة عنده لا تكون بعزل الألفاظ عن سياقها لأن الوظيفة الأساسية للغة هي الاتصال والتفاهم إذ يظهر فضل

1- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان، د.ط، ص 02.

2- نفسه، ص 03.

3- أحمد السيد الصاوي، النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص 96.

4- يوسف حسن بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، ط1، بيروت، لبنان، 1983، ص 188.

مفهوم الشعر عند

الجمام

بعض القائلين على البعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في أنفسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم⁽¹⁾، لذلك فقد اهتم ببلاغة الكلام الذي يصور المعنى بطريقة فنية لأن من الكلام ما يدل على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ومنه تصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده⁽²⁾، ويقول: "وكلام آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدل على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض..."⁽³⁾، فالإنسان عندما يصل إلى المعنى بدلالة اللفظ، والظاهر في ذلك هو المعنى، وإلا فإنه قد يحتاج إلى وسائط للوصول إلى الهدف أو الغرض المقصود لأن معنى اللفظ المباشر وحده لا يكفي، فقد تحصل أن يتخذ تحولات دلالية عند الاستعمال لأن غاية الكلام الفني يتجاوز ما تحويه اللغة من معان بالاتفاق إلى معان جديدة حين يتصرف فيها المتكلم بما يلائم طبيعته ما يريد التعبير عنه حين يشكل كلامه بوحدات اللغة التي يجعلها تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من الترتيب والتركيب⁽⁴⁾، فعن طريق هذه الوحدات قد يصل المتكلم إلى قمة الفصاحة، ولا يبلغ المتكلم ذلك (اقصد الفصاحة) باللفظ وحده وإنما الفصاحة، والبلاغة تكمن في نظم الكلام وتأليفه، وفي هذا الصدد يقول الجرجاني: "إننا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة عن الكلام الذي هي فيه، ولكن نوجبها لها موصولة بغيرها ومعلقة معناها بمعنى ما يليها"⁽⁵⁾.

1- يوسف حسن بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، ص 96.

2- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 35.

3- نفسه، ص 35.

4- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 202.

5- نفسه، ص 202.

مفهوم الشعر عند

الجمام

فمن الواضح هنا أن الجرجاني يؤمن بأن الفصاحة لا تكون في أفراد الكلمات، وإنما تكون فيها إذا ضم بعضها إلى بعض⁽¹⁾، ويشرح (الضم) هنا بقوله: "أن المعنى يكون في ضم بعضها إلى بعض، وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"⁽²⁾، ويقصد بذلك العلاقات النحوية، الألفاظ فيما بينها، أي أن الفكر ينطلق من معاني الكلمات المفردة، ليقدر معاني الكلمات المركبة أو المنظومة.

واللفظ عند الجرجاني سمة للمعنى الذي وضع له، إذ يقول: "وليت شعري هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ وهل هي إلا خدم لها ومصرفة على حكمها، أو ليست هي سمات لها أوضاعا قد وضعت لتدلّ عليها، فكيف يتصور أن تسبق في نفس المرء وليست العكس، لأنه لو جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقبل أن كانت، وما أدري ما أقول في شيء يجزّ الذاهبين إليه على أشباه هذا من فنون المحال ورديء الأحوال"⁽³⁾.

ويتضح جليا من هذا القول أن معرفة المعاني أمر ضروري ومهم لتعلم اللغة والتصرف فيها، لذلك إن الكلام كما يقول الجرجاني: "خبر واستخبار، وأمر ونهي ولكل من ذلك لفظ وضع له وجعل دليلا عليه فكل من عرف أوضاع لغة من اللغات، عربية كانت أم فارسية وعرف المعنى من كل لفظة ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجزاسها وحروفها، فهو بيّن في تلك اللغة"⁽⁴⁾.

فالكلام لا يكون مفيدا طالما لم يكن هناك معنى متواضع عليه، عند استعمال الكلمات في تراكيب يمكن للفرد أن يتصرف فيها، فالمعنى هو الرابط بين الاسم والمسمى ومن خلال ما سبق ذكره يتضح أنه لا غبرة للجرجاني بالدلالة اللفظية

1- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 359.

2- نفسه، ص 359.

3- نفسه، ص 359.

4- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 05.

مفهوم الشعر عند

الجمام

وحدها وهي الدلالة المعجمية والدلالة النسبية المورفولوجية على الحدث⁽¹⁾، كدلالة الفعل على الحدث، فليس المقصود في ذاتها (الدلالة اللفظية) لأن الهدف هو الكشف عن المعنى المستور والكامن في نفس المتكلم، لكن باستخدام ألفاظ لديها دلالة متفق عليها عند أهل اللغة، وهي ما يسمى بالدلالة اللفظية الوضعية" أي دلالة الألفاظ الموضوعية على مدلولاتها لأن الحكم على اللفظ بعد إطلاقه ليس من حق المتكلم وإنما مردّه إلى نظام لغوي عام يحكم على اللفظ به وليس السامعون بحاجة إلى إشارة المتكلم إلى المعنى المقصود من لفظه لأن المعنى متواضع عليه في أذهاننا لعلمنا بالوضع⁽²⁾ فالصيغة الكلامية إنما هي ألفاظ مركبة دالة على معاني، سواء كان متفق عليها أو العكس وتبقى اللغة نظاما اجتماعيا موجودا في أذهان البشر الناطقين بها.

فاللفظ عند إطلاقه يكون موجها أولا إلى معناه الوضعي قبل أن يخرج عليه لأن دلالة اللفظ لا تتفك عن الوضع، فهي مستندة إليه وهو الأصل الذي يرتد الكلام إليه، وهو المعنى الأول القائم في النفس والمعبر عن اللفظ الدال عليه⁽³⁾.

وإلى جانب الفئة السابقة هناك فئة تتولى بالترابط بين اللفظ والمعنى، ولعل ابن قتيبة أول من دعا إليها وبذلك خالف الجاحظ في بصيرة اللفظ على المعنى، فرأى أن الشعراء أربعة، وأن البلاغة لا تقتصر على اللفظ فقط، فقد تكون فيه وقد تكون في المعنى أو فيهما معا، وقد تنقصهما معا مذهبه التسوية، وميزاته في ذلك والجودة

1- منقول عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001، ص 132.

2- أحمد سمير معلوف، حوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، منشورات اتحاد الكتب العرب، ط1، 1996، ص 91.

3- نفسه، ص 94.

مفهوم الشعر عند

الجمام

والرداءة وقد يحكم بتعديها المنطق في ذلك فالشعر أربعة ضروب في نظره ولا يسمح المنطق بغيرها: (1)

(1) لفظ جيد والمعنى جيد

(2) لفظ جيد والمعنى رديء

(3) لفظ رديء والمعنى جيد

(4) لفظ رديء والمعنى رديء

فالقضية إذن صلة بين اللفظ والمعنى والجودة في كليهما هي المقدمة وذلك يدل على وجود تفاوت بين المعاني وليس كما يرى الجاحظ بأنها مطروحة في الطريق، فهو قد يعني الصورة الشعرية مثلما الحكمة، فهناك ترابط بين الاثنين مع أنه يستثني فيقول: "إن بعض الشعر يروى بخصائص أخرى كالإصابة في التصوير أو جمال النعمة، أو طرافة المعنى المستغرب أو لأسباب خارجية أخرى" (2)، فابن قتيبة لم يكذب عند الهدف العلمي وقوفا طويلا، إنما أشار إليه إشارة عابرة وإن كان قد استغله في التطبيق عن الحديث قال: "إن أحد ما قاله العلماء في شعر الشعراء في الألفاظ والمعاني" (3)، كما انه لمح إلى السرقات الشعرية أما الهدف الفني فقد لمح إليه تلميحا في المقدمة إلا أنه أفاض في التنظيم والتحديد، وضع القواعد التي يستعين بها الناقد حتى يكاد يلمس ماء الشعر من عنصر كريم أو هجين.

أما قدامة بن جعفر وإن لم تشغله قضية اللفظ والمعنى ما شغلت غيره، لا يكاد يبين تفضيله للفظ أو المعنى ويلوح لنا أنه نظر إليها نظرة أرسطو إلى وحدة العمل الأدبي لأنه عالجهما متصلتا بغيرها من أركان القصيدة الأخرى، وهما الوزن والقافية

1- نفسه، ص 70.

2- أحمد سمير معلوف، حوية اللغة بين الحقيقة والمجاز، ص 71.

3- نفسه، ص 72.

مفهوم الشعر النقد

الجماليات

وإتلافهما معا⁽¹⁾، وقدامة وإن أفرد نعت كل ركن من هذه الأركان على حدا، لم يقصر الجودة على واحد بعينه، بل رآها فيها مؤتلفة، ومجمعة حين يقول: "اللفظ والمعنى والوزن والقافية وصور إتلافهما معا"⁽²⁾.

أما الأمدي فقد ركّز على أهمية صحة المعنى، وصحة التأليف معا، فصحة التأليف في الشعر وفي كل صناعة، هي أقوى دعائمه بعد صحة المعنى فكل من كان أفصح تأليف كان أقوى بتلك الصناعة ممن اضطرب تأليفه، ويضيف أيضا: "ينبغي أن تعلم أن سوء التأليف، وراء اللفظ يذهب بحلاوة المعنى الرقيق، ويفسره ويحميه حتى يحوج مستعمله إلى طول تأمل، وهذا مذهب أبي تمام في معظم شعره وحسن التأليف، وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاءً وحسناً ورونقاً، وذلك مذهب البحثري... وإن جاء لطيف المعاني في غير بلاغة ولا سبك جيد ولا لفظ حسن، كان ذلك من الطراز الجيد على ثوب الخلق"⁽³⁾.

ونظر الباقلاني إلى اللفظ والمعنى نظرة ترابط، لا انفصام حيث يقول: "إن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإن كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب للدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة على المعنى المطلوب..."⁽⁴⁾.

إضافة إلى الفئتين السابقتين اللتين إحداهما تقوم على التطابق بين اللفظ والمعنى، وأخرى لا تركز على المعنى، والفئة الثالثة تنتصر للمعنى على حساب اللفظ، غير أن بعض إتباعها لا يسقط اللفظ من حسابها، ومن أتباع هذه الفئة

1- يوسف حسين بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد القديم، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط2، ص115.

2- نفسه، ص 115.

3- الجاحظ، الحيوان، ص 160.

4- يوسف حسين بكار، نفس المرجع، ص 116.

مفهوم الشعر عند

الجمام

'المرزوقي' الذي يوجب الفضل للمعنى في أكثر الأحوال قال: 'قلماً... كان الشاعر يعمل قصيدته بيتاً بيتاً، وكل بيت يتقاضاه بالاتحاد ويجب أن يكون الفضل في أكثر الأحوال في المعنى، وأن يبلغ الشاعر في تلطيفه، والأخذ من حواشيه، حتى يتسع اللفظ به، فيؤدبه على غموضه وخفائه حدّاً، يصير المدرك له والمشرف عليه كالفائز بذخيرة اغتنمها والظافر بدفينة استخرجها"⁽¹⁾.

وابن الأثير أكثر الموالين لهذه الفئة إذ يجعل الألفاظ خدماً للمعاني، والمخدوم لا شك أنه أشرف من الخادم، ولذلك يصرح أن المعاني أشرف من الألفاظ ثم يورد أدلة على ما يقوله وهي:⁽²⁾

1- لو جردت الألفاظ من دلالتها على المعاني، لما كان شيئاً معها أحق بالتقديم من شيء.

2- إن النظم والنثر يستعان عليهما بتدقيق الفكرة وكثرة الرؤية والتدبير وهذا ما يكون في المعنى دون اللفظ.

وكان ابن شرف القيرواني (ت 460 هـ) يرى أن من الشعر ما يملأ السامع ويرد على السامع منه قعاقع، فلا ترعك شماخة مبناه، وأنظر إلى ما في سكناه من معنى، فإن كان في البيت ساكن، فتلك المحاسن وإن كان خالياً فعدده جسماً بالياً، وكذلك إذا سمعت ألفاظاً مستعملة وكلمات مبتذلة فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما في أضعافها، فكم من معنى عجيب في لفظ غريب، والمعاني هي الأرواح والألفاظ هي الأشباح، فإن حسن فذلك الحظ الممدوح، وإن قبح أحدهما فلا يكن الروح"⁽³⁾، فتلك هي الفئة الثالثة لم تستوف لخروج رأيها عن المنهج، وفئة رابعة متناقضة مترددة يمثلها أبو هلال العسكري بجدارة فتارة يقول: "وليس الشأن في

1- حميد آدم أثويني، المرجع السابق، ص 83.

2- الجاحظ، الحيوان، ج 2، ص 169.

3- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 125، 126.

مفهوم الشعر عند

الجمام

إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسن بهائه... وكثرة طلاوته ومائه وصحة السبك والتركيب والخلو من أودّ النظم والتأليف...⁽¹⁾، وهذه دعوة صريحة على العناية باللفظ وتحسينه، واقتباس من قول الجاحظ الذي أوردناه غير أن أبا هلال لم يلتزم برأيه في الانتصار إلى جانب اللفظ بل عدل عنه فقال: "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معان تدل عليها ويعبر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ، لأن المدار بعد على إصابة المعنى، ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة، ومرتببة إحداهما على الأخرى معروفة"⁽²⁾، وخامسا نجد فئة تفصل بين اللفظ والمعنى فصلا لا يظهر منه ترجيح لأحدهما على الآخر فالأشاعرة أسهموا في الفصل بين اللفظ والمعنى من خلال مناقشتهم المعتزلة في قضية خلق القرآن، فقد ذهبوا دفاعا عن فكرة قدمه إلى التمييز بين (مدلول) وهو المعنى القائم بالنفس من الكلام وبين (الدلالة) وهي عندهم الألفاظ أو العبارات، التي يعبر بها المتكلم عن المعنى، وبناء على هذا التصور أصبح القرآن في نظرهم قديما من حيث مدلوله الذي هو كلام الله عزّ وجلّ، محدثا من حيث دلالاته، لاتصال الألفاظ بالبشر المخلوقين.

ومسألة الفصل بين اللفظ والمعنى لم تبق حبيسة الدراسات القرآنية وإنما انتقلت إلى مجال النقد الأدبي، لتصبح من قضاياها الرئيسية التي حظيت باهتمام كبير من النقاد، لأن الدراسات الجمالية للقرآن، في إطار بحث قضية الإعجاز خصوصا لم تكن منفصلة في الواقع عن كلام العرب - والشعر منها خاصة - من حيث البحث عن الشاهد الأسلوبي الذي يؤيد به الدراسة الظاهرة التي يعالجها في الأسلوب القرآني ومن حيث المفاضلة بين القرآن الكريم وكلام البشر في جمال الأسلوب

1- أبو هلال العسكري، الصنائع، دار الفكر العربي للنشر، لبنان، ط2، ص، ص 57، 58.

2- نفسه، ص 96.

مفهوم الشعر عند

البيضاوي

وإحكام التأثير⁽¹⁾، ويمكن أن نسلك ابن طباطبا العلوي في هذه الفئة، وهو الناقد الوحيد الذي صرح في وضوح بفكرة اللفظ والمعنى في نظم القصيدة، وصاحب فكرة مخض المعنى، نثرا وإعداد اللفظ المناسب له حيث يرى أن المعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها، وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعارض للجارية الحسناء، التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد ثبت بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح⁽²⁾.

1- يوسف حسين بكار، المرجع السابق، ص 129.

2- ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، شرحه عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1985، ص 75.

لقد قادنا البحث في مفهوم اللفظ والمعنى عند الجاحظ، فضلا عن الوقوف عند أهمّ مراحل حياته والعصر الذي عاش فيه وما شهدته من أحداث حافلة إلى جملة من النتائج نسردها في الآتي:

كان الجاحظ بمثابة مرآة عاكسة لعصره، فجاء إنتاجه غزيرا، تلائم مع الحضارة العباسية التي عايش تطورها، وفي نفس الوقت يعدّ صدق مصور لعصره، كما تبين دخول ثقافات على الثقافة العربية الإسلامية كالثقافة الفارسية، اليونانية والهندية وغيرها، كان لها الأثر الكبير على المستوى الثقافي والعلمي لأدباء هذا العصر، كما كان أحد أئمة الاعتزال البارزين، فكان لهذا المذهب أثره الواضح في بعض القضايا كقضية اللفظ والمعنى... فقد اعترف من جميع الثقافات فكان يحق موسوعة علمية، إذ يعدّ أول من أثار قضية اللفظ والمعنى التي نظر إليها قبل النقاد الآخرين، فقضية اللفظ والمعنى عنده تعدّ مسألة أساسية مشتركة بين العلوم والدراسات العربية المتصلة بالكلمة واللغة، فقد نشأت في أحضان مختلف العلوم عامة والبلاغة واللسانيات على وجه الخصوص، فاللفظ والمعنى عنده في مستواهما الفني غير مفصولين عن التصور اللغوي، إذ يرى أن البلاغة في الألفاظ، فلذلك لم يعن القدامى بالألفاظ أصواتا مجردة من معانيها وإنما عنوا بها العبارة عن المعنى، فدلالة المعنى عند الجاحظ مستخلصة من مقولته "المعاني مطروحة في الطريق"، فالمقصود باللفظ دائماً اللفظ المفرد ولا المقصود بالمعنى دائماً المدلول المفرد، فهذه القضية علاقة وطيدة بمشكلة الوضع والمواضعة فيما يخص نشأة اللغة، فالعلاقة التي تربط بينهما هي علاقة اعتبارية.

إن الألفاظ هي الوحدات الأساسية التي تشكل اللغة لأنها قابلة لتحقيق التواصل، فالمعنى هو الربط بين الاسم والمسمى فهو يعطي للمواضعة ثيابها هذا بالإضافة إلى

تقديمه لرؤية علمية شاملة في الدرس اللغوي، وهذه الرؤية ما هي إلا ثمرة من ثمار الدرس اللغوي خاصة والأدبي على وجه الخصوص، ففي نظره اللغة العربية نظام مرن قابل للدراسة والتحليل ومصدر للإبداع والإنتاج، كما يرى أن سبب التقارب الدلالي هو اشتراك الألفاظ في مخارج أصواتها، فاللفظ عنده يرتبط بمجموعة من العناصر التي تشكل معه حقلاً دلالياً بالاعتماد على العلاقات الترابطية المكونة لنظام المدلولات العربية، هكذا يبقى الجاحظ مادة خاصة لمن أراد الخوض في هاته الجوانب، ونرجو أن يكون هذا العمل المتواضع نافعاً ومفيداً لمن يصدُّبُ إليه.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المراجع باللغة العربية:

1. ابتسام مرهون، ناصر الحلاوي، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، جبهة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006.
2. ابن رشيق القيرواني، العمدة، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، ج3، ط1، 1996.
3. ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، شرحه عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1985.
4. ابن منظور، لسان العرب، مادة جحظ، د.ت، ص 192.
5. أبو هلال العسكري، الصناعتين، دار الفكر العربي، لبنان، ط2، د.ت.
6. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط1، لبنان، 1971.
7. أحمد السيد الصاوي، النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979.
8. أحمد الوردوني، قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2004.
9. أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط29، 1975م.
10. أحمد سمير معلوف، حوبة اللغة بين الحقيقة والمجاز، منشورات اتحاد الكتب العرب، ط1، 1996.
11. أدونيس، الثابت والمتحول، تأصيل الأصول، بحث في الإتياع والإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ط1، 1977م.
12. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط4، ج1، 1985.
13. الجاحظ، الحيوان، ت.ح: عبد السلام هارون، ج3، ط3، بيروت، لبنان، 1969.
14. الجاحظ، تح: يحي السامي، دار ومكتبة الهلال، مصر، د.ط، 2003.
15. جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1998.
16. جورج غريب، الجاحظ دراسة عامة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة متعددة.
17. حميد آدم أثونبي، منهج النقد الأدبي عند العرب، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2004.
18. حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ط10، د.ت.

19. رابح العويبي، فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال الترييع والتدوير، الحيوان، البخلاء، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989م.
20. سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، منشورات عويدات الدولية، بيروت، لبنان، ط1، 1991.
21. سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الآفاق العربية، ط1، 2001.
22. شفيق جبيري، الجاحظ معلم العقل والأدب، دار المعارف، مصر، د.ت.
23. شكري عياد، كتاب أرسطو طليس، ترجمة: منى ابن يونس القنائي، دار الكتب العربي، القاهرة، ط1، 1967.
24. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج4، العصر العباسي 2، دار المعارف، مصر، ط2، 1975.
25. طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، مصر، ط2، 1975م.
26. عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د، ت)
27. عبد القادر هني، نظرية إبداع في النقد العربي القديم، دار الثقافة، الجزائر، د.ط، 1999.
28. عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، دراسة تشريحية لقصيدة أشجات يمانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003.
29. علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، دون طبعة.
30. علي شلق، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 2006.
31. فوزي عطوي، الجاحظ، دار المعارف عصره، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1998م.
32. قصي الحسن، النقد الأدبي عند العرب واليونان، معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2003.
33. محمد الصغير بنّاني، النظريات اللسانية والأدبية والبلاغية عند الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
34. محمد صغير بناني، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، من خلال كتاب البيان والتبيين، دار الثقافة، الجزائر، ط1، 1994.
35. محمد عبد المنعم خفاجي، أبو عثمان الجاحظ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط.
36. محمد كرد علي، أمراء البيان، دار الآفاق العربية، مصر، ج2، 2003.

37. منقور عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2001.

38. هيثم سرحان، إستراتيجية التأويل الدلالي عند المعتزلة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003.

39. ولد يوسف مصطفى، الجاحظ وطه حسين، نشأة وفكراً وأسلوباً، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، د.ت.

40. يوسف حسن بكار، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس، ط1، بيروت، لبنان، 1983.

41.

ب- المراجع المترجمة:

42. جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عبّاس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، العراق، ط1، 1987.

43. شارل يلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، د.ط، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، 1985م.

44. فيكتور شلحت، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، ط3، دار المشرق، لبنان، 1992م.

ج- الموقع الإلكتروني:

45. مليكة حقان، إعجاز القرآن بين مبادئ اللغة وأصول العقيدة، www.dinanalarab.com الساعة 13:13 سا.

فهرس المحتويات

	مقدمة
04	مدخل
الفصل الأول: شخصية الجاحظ	
14	مولده ونشأته
17	صفاته وأخلاقه
19	مؤلفات الجاحظ وكتبه
21	مميزات عصره
27	مصادر ثقافته
31	وفاة الجاحظ
الفصل الثاني: مفهوم الشعر عند الجاحظ	
34	موقف المعتزلة من قضية اللفظ والمعنى
36	المفهوم المعنى عند الجاحظ
36	رمزية المعنى واللفظ
37	تعريف اللفظ
38	الجاحظ وقضية اللفظ والمعنى
48	اللفظ والمعنى عند النقاد القدامى
51	دلائل الإعجاز وعلاقتها بقضية اللفظ والمعنى
	خاتمة